مدرستا أهل القرآن واقرأ لتعليم القرآن الكريم

ولاية سمائل – وادي بني رواحة

مقرر المسابقة السابعة عشرة

تفسير القرآن الكريم
الجـــزء السابع عشر

من كتاب
الإبريز في تفسير كتاب الله العزيز

يمكنكم الحصول على تفاصيل المسابقة وتنزيل نسخة إلكترونية من هذا المحتوى عبر
موقع المدرستين على شبكة المعلومات العالمية

https://areejquran.net/

دعـــوة من القلب

لأننا نحبكم في الله فإننا نوجه إليكم دعوة من القلب لخدمة دين الله تعالى من خلال المشاركة في نظام السهم الوقفي، أو الدعم المباشر للمبنى الوقفي، والبرامج التعليمية للمدرستين وذلك من خلال التواصل عبر الأرقام ٩٩٢٠٦٣١٥ – ٩٨٢١١٢١١ - ٩٢٥٠٨٦١٣

سائلين المولى عز وجل أن يجعل إنفاقكم صدقة جارية في ميزان حسناتكم.

تفسير الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء

سورة الأنبياء سورة مكية كلها على الأرجح وهي من أواخر السور التي نزلت قبل الهجرة، و آياتها مئة و اثنتا عشرة آية، سميت كذلك لأنها تناولت ذكر ستة عشر نبيا وذكرت صديقة وهي مريم عليها السلام، وذكرت جهادَهم مع أقوامهم. حوت السورة عدة مواضيع أولها أصول التوحيد والعقيدة الإسلامية؛ من إنذار بقرب الساعة، وغفلة الناس عنها و افتتانهم بلذات الدنيا، وتنبيه بخطورة البعث والحساب، وحوت حديثا في موضوع آيات الله الكونية من خلق السموات والأرض والجبال وتعاقب الليل والنهار؛ لفتًا لانتباه المشركين والمكذبين برسول الله ﷺ إلى عظمة الله من خلالها، وإلى انقياد الملائكة له ﷻ وعدم ترددهم في تنفيذ أمره، وإلى أن الساعة آتية بغتة لامحالة ويعقبها حساب دقيق بعده جزاء عادل؛ وتحقيقا لذلك جاء الأنبياء بالرسالات؛ ومهمتهم واحدة هي الدعوة إلى الله تعالى. ثم عرجت السورة أخيرا إلى ذكر علامة لقيام الساعة وبعض من أهوالها؛ من تبدل الأرض وطي السموات؛ وأن الكفار بعد ذلك هم حصب جهنم أما المؤمنون فلهم النعيم المقيم.

وختمت السورة ببيان كون النبي ﷺ رحمة للعالمين ونذيرا بعذاب قريب. وما تأخير العقاب على العصاة إلا امتحان لهم. وسيحكم الله بين النبي ﷺ والمشركين من قومه، وهو المستعان على ما يفترون. ولقد جاءت السورة إيذانا بقرب الأجل المنتظر المذكور في سابقتها سورة طه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [سورة طه:١٢٩] وفتحت هذه السورة بما ختمت به سورة طه ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة طه:١٣١] على أن اقتراب الساعة يقتضي الإعراض عن زهرة الحياة الدنيا.

١. اقتراب الحساب و انشغال الناس عنه بتكذيب الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾.

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ الآية تهديد و إنذار للمشركين بشدة اقتراب الحساب باقتراب قيام الساعة كاقتراب مُغيرٍ على قوم معجل في طلبهم؛ وهم ساهون عن الاستعداد له بالإيمان، ومعرضون عن التفكير في عاقبتهم، وهو قريب أيضا لتحقّق وقوعه عند الله، أو لمضي أكثر مدة الحياة الدنيا وبقاء أقلها. وتقوم ساعة كل إنسان بموته ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ودليل على غفلة المشركين وإعراضِهم؛ سخريتُهم بكل ما ينزل في القرآن من آيات وسور

-يحدث تنزلها عليهم شيئا فشيئا تجديدا لتذكيرهم-، وفي وصف القرآن الكريم بأنه "مُحْدَث"، ما يدل على أنه ليس قديما، و إنما هو كغيره من المحدثات التي أحدثها الله وخلقها في أزمنة محددة، وكونه كلام الله لا يعنى أنه قديم، و إنما نسب إلى الله لأن الله هو الذي ركبه وسبكه على هذه الصورة فهو من الله لا من غيره. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ساهية قلوبهم تاركين ذكر القرآن وتدبر معانيه، وشددوا في إسرار تناجيهم حتى أنهم لا يتناجون بمحضر من يراهم، يقولون في تناجيهم: ما محمد ﷺ إلاّ بشر مثلكم –وقد اعتقدوا أن كل ما يأتي به من الخوارق منها القرآن هو من قبيل السحر- فعجبوا ممن آمن: واستنكروا عليهم كيف تأتون السحر وتقبلون به و أنتم سليمو البصيرة والبصر؟ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أطلع الله ﷻ رسوله ﷺ على نجواهم ثم أمره أن يهددهم بأن الله ﷻ يعلم كل قول في السماء وفي الأرض سواء أأُسرّ به أم جُهر؛ وتذييلا على ذلك يُعلمهم بأنه المتصف بتمام العلم

بالمسموعات وغيرها ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ وهذا إضراب من الله عن قولهم بالباطل ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ للانتقال إلى قول آخر باطل منهم بأن ما جاء به رسول الله ﷺ من القرآن أخلاط أحلام مما يراه الإنسان، ثمّ أضربوا عنه بقولهم هي أكاذيب اختلقها من عنده؛ ليضربوا عنه إلى قولهم إنما هو شاعر؛ وهذا الذي يقوله شعر خيل للناس أنه من روائعه فاستحسنوه، وهذا الاضطراب من المشركين في أقوالهم دليل على بطلان حججهم؛ لأن الباطل متردَّد فيه. وربما كانت هذه الحجج من جماعات مختلفة من المشركين، لكن اجتمعوا في النهاية على مطالبتهم الرسول ﷺ بالإتيان بمعجزة محسوسة كناقة صالح وعصا موسى عليه السلام؛ ولم يكن يجدر بهم أن يطالبوه بالإتيان بالخوارق وقد وصفوه بالسحر ومن شأن السحر أن يظهر للناس ما يوهمهم أنه خارق للعادة فيكون اتهامهم إياه به عندها أهون عليهم. والأضغاث: ج ضِغثٍ؛ وهو الحزمة المختلطة من العشب أو الحشيش، وأطلق على الأخلاط مطلقا ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ لم يجب الله طلب كفار قريش بإتيانه إياهم آيات محسوسة مثلما أوتي الأولون؛ لأن سنته اقتضت استئصال كل قوم كذبوا بآية طلبوها، ولأن الأقوام قبلهم كذبوا بالآيات فأهلكوا، فهل يؤمن كفار مكة بالآيات إن جاءتهم؟!

٢. بشرية المرسلين وصدق وعد الله لهم وتشريف قريش بالقرآن لو اتبعوه

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لم نرسل قبلك يا محمد ﷺ رسولا إلا رجالا من البشر، ولم نرسل مَلَكًا رسولا؛ وفي هذا إبطال لمستند المشركين في إنكار الرسالة على محمد ﷺ لأنه بشر. ولما كان الكلام عن تقرير الحقائق وجهه الله ﷻ إلى الرسول ﷺ وإلى كل سامع؛ ولما أراد تجهيل الكفار لعدم صحة اعتراضهم وجه إليهم الخطاب بأن يسألوا أهل العلم بالكتب السماوية السابقة عن أنبيائهم إن كانوا بشرا أم ملائكة ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ

الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ يطلق الجسد على الجسم الذي لا حياة فيه، لذلك فإن الآية جاءت تهكما بالكفار لما أنكروا على الرسول ﷺ كونه يأكل الطعام، ثم سألوه بأن يأتيهم بما جاء الأولون؛ وكأنهم يزعمون بأن السابقين من الرسل لم يكونوا يأكلون الطعام وهو من المتطلبات الأساسية للحياة، وهذا منهم يقتضي أن يكونوا بلا أرواح، فكان هذا الزعم من الكفار دليلا على سخافتهم، وعدم خلود المرسلين في الدنيا وتحققُ فنائهم فيها تأكيد على بشريتهم ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ لما انتظروا مجيء ما أوتي الأولون و افاهم الله بخبرهم؛ ليعلموا أنهم إن أجيبوا إلى ما طلبوا فإن رسولهم ينتظر صدق وعد الله بنصرته وتنجيته ومن شاء الله من أتباعه من الإهلاك بالعذاب، أما هم فينتظرون صدق وعده بإهلاك المسرفين المبالغين في تكذيب رسلهم. وجاء بصيغة المضارع "نشاء" في الحديث عن تنجية من نجا تأميلا للكفار كي يؤمنوا لينجوا، ثم عاد للحديث عن الإهلاك ليكون حكاية عن إهلاك قوم مضوا ليبقى تحذيرا لهم من أن يحل بهم مثل ما حل بمن سبقوهم؛ وهذه من نعم الله عليهم بأن حثهم على الإيمان وأغراهم به ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توجه الخطاب إلى عرب قريش بأن قد أنزلنا إليكم كتابا وهو القرآن أعظم من الآيات التي أوتيها من سبقوكم؛ فلا أحد يستطيع أن يأتي بمثله، وهو المعجزة الخالدة؛ و أنزلناه بلغتكم على رجل منكم فبه يعلو شأنكم ويذيع صيتكم، وهو كتاب هداية به تتهذب أخلاقكم، وبه عزكم في الدنيا والآخرة، ثم أنكر الله عليهم سوء عقلهم لعدم اهتدائهم بالقرآن، و أنكر عليهم سوء تقديرهم الأمور حق قدرها؛ بإهمالهم أنفسهم عن التفكر فيما فيه من المصالح لهم. ونكّر "كتابا" إيماء لعظمته؛ إذ هو معجزة وفي الوقت نفسِه هو كتاب هداية، ولقد افتتحت الآية بالقسم وبالتحقيق تأكيدا بأن القرآن حقّ و أنه أُنزل إليهم ومن أجل دعوتهم. ويطلق "الذكر" على التذكير بما فيه الصلاح، وعلى السمعة والشرف.

٣. مآل الأمم الظالمة و إنذار الكفار بعذاب الاستئصال

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ مبالغة في زجر الكفار وتحذيرهم من العصيان وتكذيب الرسول ﷺ؛ ذكر الله تعالى هنا أنه قد أهلك قرى كثيرة بأن استأصل أهلها وخلق بعدهم أقواما وأمما أخرى غيرهم، و"كم" خبرية تفيد كثرة وقوع ما بعدها؛ والكثرة تستلزم عدم تخلف أي قرية ظالم أهلها عن الهلاك؛ بحكم المساواة بين الأمم في الجزاء، و"القصم" كسر الشيء مع تفريق أجزائه بنحوٍ لا يرجى بعده التئامها. ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي فلما أدرك أهل القرية المقصومة المهلكة بوادر العذاب والشدة بحواسهم إبصارا أو سماعا، ابتدروا إلى الفرار من القرية مسرعين لينجوا بأنفسهم منها؛ لشدة فزعهم حين فاجأهم فيها العذاب. و"الركض" الفرار والهرب بسرعة. ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ خطاب للراكضين، وهو خطاب تهكمي؛ بمعنى لا تفروا من العذاب، بل ارجعوا إلى مساكنكم وما أنعمنا عليكم من الرفاهية وطيب العيش، عسى أن تُسألوا عما حلّ بها بعد هذا العذاب فتكونوا على علم بما ستجيبون. و"الإترافِ" إعطاء الترف؛ وهو النعيم ورفاهة العيش ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ من شأن من كان فزعا أن يصدر قولا يدل على خوفه وندمه على فعل ما يجلب إليه المخاوف، وقد اعترف هؤلاء الظالمون بظلمهم وتكذيبهم الرسل بندائهم "يا ويلنا" بمعنى يا هلاكنا فهم بهذا صرحوا واعترفوا بكفرهم الذي أوجب عليهم الهلاك ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي فما زالوا يرددون مقولتهم التي هي اعتراف منهم ودعاء بالهلاك؛ حتى صاروا كالنبات المحصود بالمنجل بعد أن كان مخضرا نضرا، وشبهوا أيضا بالنار خمدت و انطفأ لهيبها وصارت لا حياة فيها بعد أن كانت متأججة مستعرة.

٤. دقة صنع الله وقوة الحق على الباطل وخضوع المخلوقات لله ﷻ

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ كثيرا ما يتعاقب في القرآن ذكر إتقان خلق السموات والأرض وما بينهما من أصناف الخلق، والحساب والجزاء على الأعمال؛ تنبيها للعقول الحكيمة بحكمة الله في خلق المخلوقات وخلق سننها ونظمها؛ وفي ذكر حكمة الله في خلق السموات والأرض بعد ذكر إهلاك القرى الظالمة إيقاظ للعقول إلى الاستدلال بدقة خلقهما على عدم تخلف سنة الله عن ترتيب المسبّبات على الأسباب؛ ومن ذلك جزاء المكلف على جنس ما يأتي به من أعمال؛ لذلك فإن خلْقَ اللهِ السموات والأرض ليس كتصرف الملوك في أملاكهم وفقا لأهوائهم، بل هو لحصول فائدة الاستدلال بهما على وجوده وقدرته وعدله ودقة صنعه ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كان ذلك ردّا على من قال اتخذ الله ولدا؛ وتقريرا لجملة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ بمعنى ما كنا لنتخذ لهوا، وإن اتخذناه -فرَضًا- لم يكن من عالَم شهادتكم الذي اختصصتم به؛ بل يكون من عالَم الغيب الذي هو أشرف؛ فمن شأن من يتخذ شيئا للتّفكّه أن يستأثر به, وإضافة "لدن" إلى لفظ الجلالة دليل على الرفعة والتفضيل. ولا يجوز أن يقال بأن الله لو أراد اللهو لامتنع عنه لأن إرادته لا تتخلف، ولا أن يوصف بالقدرة عليه لأنه لا يجوز في صفته اللهو، بل إن الله لا يريد اللهو لأن الحكمة صارفة عنه، فما كان الله أن يتخذه ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ إضراب عن إرادة اتخاذ اللهو بمعنى لا إرادة لنا على اتخاذ اللهو الذي هو من الباطل؛ بل من شأننا أن نرمي بالحقّ الباطلَ فيُهلكه ويُبطله ويمحقه بالكليّة؛ كما فعلنا بالقرى الظالم أهلها، وفي إيراد "إذا" الفجائية دلالة على سرعة محق الباطلِ بالحقّ، ولكُم يا معشر كفار قريش العذاب والدمار في الدنيا والآخرة من وصفكم الله بما لا يجوز وصفه به من الصاحبة والولد، وبما تصفون به محمدا ﷺ والقرآن الكريم. و"الدمغ" كسر الجسم الصلب الأجوف، "الزاّهِق" المنفلت من موضعه والهالك ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ كل من في السموات والأرض من الإنس والجن وغيرهم من المخلوقات، ملكٌ لله خلقا وتصرفا وانقيادا؛ ومع ذلك فأنتم تصفونه بما لا يجوز في حقه، وفي هذا تعريض بالمشركين الذين استكبروا عن عبادة الله وعبدوا الأصنام، وجمَعَ السموات هنا لإظهار مزيد من العظمة و"الواو" للحال؛ و"من في السموات والأرض" أريد به العقلاء وغيرهم، وغُلِّب اسم

الموصول"من" الذي هو للعقلاء لأنهم المقصود بدرجة أولى، و"من عنده" هم الملائكة؛ لا يأنفون عن عبادته ولا يملونها ولا يتعبون. والعندية للشرف والتنزيل منزلة المقربين عند الملوك، لا عندية مكان -تعالى الله عن المكان -، و"الاستحسار" هو التعب ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ينزهون الله عما لا يليق به في كل وقت ليل نهار، ولا يفترون عن تسبيحه بفراغ أو بشغل؛ كتلقي الوحي أو تبليغه أو الاستغفار للمؤمنين؛ فإن ذلك منهم تسبيح أو أن ذلك لا يعوقهم عن التسبيح. و"الفتور" الانقطاع عن الفعل.

٥. إبطال الشرك بالله وتوبيخ المشركين عليه، و إثبات الوحدانية له ﷻ

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ سؤال إنكاري تهكمي يعني أن هؤلاء المشركين -على الرغم من قدرة الله ﷻ- عدلوا عن عبادته و اتخذوا آلهة لهم من أجزاء الأرض المملوكة لله الخاضعة له، وفيه إنكار القدرة على البعث لهذه الآلهة؛ وكأنما المشركون ادّعوها لهم؛ مع أنهم ينكرون البعث بالجملة؛ لكن أُنزلوا منزلة من يدّعي ذلك وأُلزموه؛ إذ الأحرى بهم أن ينسبوا إحياء الموتى إلى آلهتهم ما داموا قد ألّهوها، و"أم" للإضراب الانتقالي من إثبات صدق الرسول ﷺ إلى إبطال إشراك المشركين. "ينشرون" من النشر؛ وهو إحياء الموتى من قبورهم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تبيينا لإنكار اتخاذ آلهة غير الله على المشركين سيقت هذه الجملة؛ فلو كان في السموات والأرض آلهة غير الله ولم تكونا جميعا ملكا لله لاختل نظامهما، وفي هذا إبطال لعقيدة المشركين بأن الله لما خلق السموات والأرض اتخذ فيهما شركاء يُسيّرون شؤونهما ويدبرونها معه؛ فهم يسلّمون بأن الله هو خالقهما لكنهم يشركون به غيره في تسييرهما؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٨] فكانت الجملة لإثبات الوحدانية لله تعالى لا لإثبات الخلق له. ولو تعددت الآلهة للزم أن يتصف كل منها بصفات الألوهية؛ من القدرةِ المطلقة والإرادة التامة؛

فإن اتفقت إرادة إلهين على شيء معين كإنبات زرع أو إطلاع شمس لكان وجود أحدهما عبثا إذ يمكن الاستغناء عنه! وإن اختلفت إرادتهما في فعلٍ شيء أو في تركه فالغالب بإرادته هو الإله والآخر عاجز، وإن تنازلا عن الفعل والترك معا من أجل الاختلاف أو كان بينهما اصطلاح فكلاهما عاجز ليس بإله؛، وإن تساوت قدرتهما مع اختلاف إرادتهما لكان كل منهما يفسد على الآخر نظام السموات والأرض وما فيهما عند كل خلاف؛ فالواجب في صفة الإله القدرة المطلقة والإرادة التامة على كل شيء، فنزّهوا الله كل التنزيه عن كل شرك، واعْجَبوا يا معشر العقلاء ممن يعدل عن عبادة المالك القادر الضار النافع إلى عبادة آلهة لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا. وأعاد ذكر اسم الجلالة لإظهار المهابة وأن الألوهية مناط الكمال كله، ووصف نفسه برب العرش للتذكير بأنه المنفرد بخلق السموات والأرض و أنه الخالق لما هو أعظم منهما وهو العرش ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ لا أحد يسأل الله ﷻ سؤال محاسبة وطلب بيان سبب الفعل، أو سؤال اعتراض فهو الحكيم التامة حكمته؛ أما عباده فهو يسألهم عما يفعلون مما يثابون عليه أو يعاقبون؛ لأنهم مملوكون ومستعبدون له، وهم مكلفون على ما يفعلونه من اختيارهم ولو كان الله هو من خلقه، أما الخلق فلا يسألونه إلا سؤال طلب علم أو استشارة أو استفادة أو دعاء ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ سؤال توبيخ للمشركين على اتخاذهم آلهة غير الله انتقالا من الإنكار عليهم اتخاذ آلهة مع الله في قوله بادئ الأمر ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ إلى إنكار اتخاذهم آلهة مع إنكار الله؛ فأبطل الأول بالعقل و أبطل الثاني بالنقل؛ بمعنى قل لهؤلاء المشركين يا محمد ﷺ قدموا حجة واضحة ودليلا من العقل والنقل على أن لله شركاء، فهذا برهانٌ معي ولمن تبعني مُنزَّل من أجلكم وهو القرآن، وبرهان من قبلي من الأنبياء وهي الكتب المنزلة عليهم كلها تشهد بأن الله متوحد بالألوهية وبالملك لا شريك له، ثم انتقل عن هذا الاستدلال إذ لا أمل في قبولهم له؛ فلا يرجى منهم الاعتراف ببطلان آلهتهم فليسوا يرجون معرفة الحقّ لأن أكثرهم معرضون ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ لم نرسل يا محمد ﷺ قبلك رسولا من لدن آدم إلاّ وأمرناه بإخلاص العبادة لله و إفراده بالألوهية، وتأييدا لما لقن الله ﷻ رسوله ﷺ ليجيب به المشركين؛

جاء تعميم شرائع الرسل بذلك في كتبهم وصحفهم وغيرها مما أوحي إليهم، وإظهارا لعناية الله بإزالة الشرك من نفوس البشر؛ فرسالاتهم جميعا قائمة على التوحيد.

٦. عبودية الملائكة لله ﷻ ونزاهة الله ﷻ عن الأبوة

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)﴾.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ زعمت طائفة من المشركين أن الملائكة بنات الله، و اتخاذ الولد ناشئ عن الافتقار إلى سد النقص الذي يكون بفقد الولد فتنزه الله عن ذلك وتقدس، بل الملائكة عباد من عباد الله خلقهم مكرمين، وجعلهم مقربين؛ فهم لا يقولون قولا إلا بإذنه، ولا يعملون عملا إلا بعد أمره، كما أنهم يمتثلون أمره ولا يخالفونه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ لا يخفى على الله ﷻ شيء من أحوال الملائكة؛ ولعلمهم بذلك فهم يراقبونه غاية المراقبة ليمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه، وردا على اتخاذ المشركين آلهة زعما بأنهم لهم شفعاء؛ فإن الملائكة لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله بأن قال "لا إله إلا الله" و أتبعها الإيمان والعمل الصالح ومات على ذلك غير متلبس بكبيرة؛ فكيف بشفاعة أصنام من جماد؟!، ثم إن الملائكة -وهم المقربون- مع ذلك يخشون الله ويعظمونه ويخافون عذابه إن قصروا أو قاربوا الزلل. "الإشفاق" توقع المكروه والحذر منه ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ وفرضا لو أن أحدا منهم ادعى الألوهية -وهم معصومون من ذلك لشدة خشيتهم- فإنه سيجزى جهنم كما هو جزاء من ظلم وادعى الألوهية لهم وهم غير راضين.

٧. الإنكار على المشركين عدم التدبر في آيات كونية تدل على وجود الله ﷻ

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في الآية إنكار على الذين كفروا إهمالهم النظر والتفكر في آيات الله ﷻ: ألم يعلموا من أهل الكتاب أو بإعلام الله إياهم أن السموات والأرض كانتا جسما واحدا ففصلناهما عن بعضهما؛ بمعنى: أن الكون الذي يحوى السموات والأرض كان مقبوضا في حجم أصغر من الذرة فبسطه الله، فيما يُعرف بنظرية الانفجار الكبير، فصار يتمدد بسرعة هائلة تقاس بالسنوات الضوئية؛ وسرعة الضوء ثلاثمئة كيلومتر في الثانية، فكم هي المسافة التي يقطعها في سنة؟! ومن ذلك التمدد للكون كان خلق السموات والأرض، وهذا ما أثبته علم الكونيات الحديث في نظريات نشأة الكون، وصرح بعض العلماء -بمعادلات دقيقة معينة- بأن الكون كان عدما، و أنه سيظل يتمدد إلى أجل معين[1]. وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وجعلنا –من الماء- في الأرض كل شئ حي، أفلا يؤمن هؤلاء الكفار بوحدانية الله مع كل عظمته هذه؟! و"الرتق" الاتصال والتلاصق بين أجزاء الشيء؛ وضده: "الفتق" وهو الانفصال والتباعد بين أجزاء الشيء ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ومن آثار فتق الأرض والسموات؛ جعلنا في الأرض جبالا ثوابت كي لا تضطرب أو تتحرك بهم فلا يستطيعون فيها قرارا، وجعلنا فيها طرقا سهلة واسعة رجاء أن يتمكنوا من السير فيها، ويهتدوا في أسفارهم إلى مقاصدهم. و"الميد" التحرك والدوران "الفجاج" جمع فجّ: وهو الطريق الواسع. ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وجعلنا السماء كالسقف للأرض، مرفوعة بلا عماد، محفوظة من البِلى والسقوط، ومحفوظة بالرجوم من استراق السمع، والمشركون عن آياتها من شمس وقمر ونجوم معرضون لا يتفكرون في أن خالقها متوحد بالربوبية

[1] موقع الدكتور زغلول النجار: http://www.elnaggarzr.com

والألوهية، وفي وصف السماء بالسقف ما يدل على أنها مادة ذات جرم وهذا ما ثبت في العلم الحديث ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ والله خلق الليل بظلامه وسكونه والنهار بضيائه و أنسه وجعل القمر آية لليل والشمس آية للنهار؛ وجعل لكلّ منهم مدارا لا يحيد عنه؛ وكل منهما سابح في فضاء له لا يصطدم بغيره. وذكر الله هذه المخلوقات النافعة للإنسان بخلقها؛ امتنانا عليه إذ هي نعم يتوجب عليه شكرها بإخلاص العبادة لله ﷻ؛ لكن المشركين عبدوا الأصنام كما لو أنها الخالقة لها. و انتقل من الخطاب إلى الغيبة لتأكيد الاهتمام بالفحوى.

٨. ليس لبشر أن يخلد في الدنيا، والموت والعذاب يأتيان بغتة

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ نزلت الآية لما قال الكفار عن الرسول ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المنون﴾ [الطور: ٣٠] لما عجزوا عن معارضة دعوته، فجاءه الوحي بأن: قضينا يا محمد ﷺ بألّا يخلد قبلك بشر، وكل من في هذه الدنيا منهم عرضة للموت و أنت منهم، أفإن متَّ فهم يرجون بعدك البقاء بلا موت كمن يزعم بأنه خالد؟! ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ كل نفس سوف يدركها الموت مهما عمّرت، وستقاسي آلامه العظام عند مقدماته إن كانت شقية، ونختبركم أيها الناس حين وجودكم في الدنيا بالمكروه والمحبوب من الأحوال: شدة ورخاء، صحة وسقما، غنى وفقرا ونبلوكم بالتكاليف: حلالا وحراما، طاعة ومعصية، هدى وضلالة؛ وذلك ابتلاء لكم لننظر كيف تشكرون على الخير وكم تصبرون على الشر، لترجعوا إلينا بعد الموت فنجازيكم على أعمالكم ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ومن الأذى الذي يُلحِقه بك المشركون أيها الرسول ﷺ؛ أنهم حين

يرونك فليس همهم إلا السخرية منك واستنقاصك؛ فيشيرون إليك عابثين فاكهين، ويقول بعضهم لبعض منكرين متعجبين: أهذا الذي يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم؟! في حين أنهم غاية في الجهل إذ عبدوا آلهة لا نفع يرجى منها ولا ضر يتقى بها، وجحدوا الله الذي لا ضر ولا نفع إلا به ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ خُلق الانسان مستعجلا وقوع نتائج الأشياء قبل أوانها، والعجلة سجية فيه فكأنما خُلق منها فصارت ملازمة له، ولما ذكر الله ﷻ استهزاء المشركين بالرسول ﷺ ثار في نفوس المسلمين تساؤل: إلى متى إمهال هؤلاء المستهزئين؟! فأمرهم بالتريّث إذ الله ﷻ أحكم الحاكمين، ويعلم ما في ذلك من مصالح للدين وأهمها أن يهتدي كثير من أولئك للإسلام، ثم وعدهم بأن يريهم نصرة الدين وهلاك أئمة الكفر؛ فكان ذلك يوم بدر.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول المشركون للمؤمنين مستعجلين العذاب مستبعدين حدوثه: متى نصرة المسلمين وحصول العذاب الذي وعدنا به محمد؟! إن كنتم صادقين فيما وعدتمونا به! ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ لو أدرك هؤلاء الكفار الحقيقة وتيقنوا أن العذاب واقع بهم لامحالة، وأنه يغشاهم من كل جهاتهم فلا يستطيعون دفعه عنهم من أية جهة، ولا يجدون لهم ناصرا ينقذهم منه؛ لما استعجلوه ولما أصروا على الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ. وحُذف جواب "لو" تهويلا لجنس العذاب لتذهب نفس السامع كل مذهب في تصوره وتقديره ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ بل تفاجئ الساعة هؤلاء المستعجلين العذاب، فلا يملكون ردها ويقعون في حيرة ويُغلبون، ولا يجدون مهلة للرجوع والتوبة بعد أن طالت بهم المهلة في الدنيا ولم يهتدوا ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تسلية للنبي ﷺ عن استهزاء المشركين به إذ أخبره الله ﷻ بأن قد لاقى قبلك الأنبياء من أقوامهم مما لاقيت نفسه فكانت سخرية الساخرين منهم سبب العذاب؛ فحل بهم ولحقهم وسيلحق المستهزئين من قومك أيضا. ومعنى "حاق" نزل محيطاً بهم ، ولا يستعمل إلا فى الشر

٩. قصور الإنسان عن حفظ نفسه وعناية الله به وعدله ﷻ في الحساب

قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (٤٥) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ اسأل هؤلاء المستهزئين يا محمد ﷺ سؤال تقريع و إنكار: من يحفظكم بالليل والنهار من بأس الله ﷻ؟! فكما أنكم لا تقدرون على دفع العذاب عنكم في الآخرة؛ فإنكم لن تسلموا من المهالك في الدنيا إلا بحفظ الله ﷻ ورعايته؛ فلا تغتروا بإمهاله إياكم؛ فإن أنزل عليكم عذابه فلا أحد يحرسكم بالليل والنهار، و"بل" للإضراب عن الشيء إلى غيره، أضرب الله ﷻ عن تقريعهم إلى التأييس من صلاحهم، فلا يرجى نفع التقريع فيهم؛ إذ هم معرضون عن آيات الله ومواعظه ﷻ فلا يعتبرون بها ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ سؤال تقريع و إنكار بمعنى: بل هل لهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا؟! تلك الآلهة التي زعموها شفيعا لهم عند الله ﷻ، لا تستطيع نصر نفسها بنفسها، فأنى لها بنصرة من يعبدونها؟! وهي نفسها ليست محفوظة من عذابنا. و"يُصحبون" يُجَارون ويحفظون ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَ آبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ بل غرور هؤلاء -كفار قريش- بالنعيم وجرأتهم على الاستهزاء، إنما هو لاستمرارهم في نعم الله ﷻ وكلاءته، وما هذا إلا إمهال لهم واستدراج، وكما طالت أعمار آبائهم ثم انتهت ستنتهي أعمار هؤلاء الكفار بالعذاب بعد أمد علمه الله، ألم يعلموا ويتفكروا في أنّا نأتي أرضهم -أرض الكفر- فنُنقصها من جوانبها بتغليب المؤمنين عليها، وبالفتح على النبي ﷺ؟ أهم الغالبون مع كل هذا؟ كلا بل هم المغلوبون والمؤمنون هم الغالبون ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ قل لمن أرسلت إليهم من الكفار أيها الرسول ﷺ: إنما الذي أخوفكم به هو وحي من عند الله

ﷻ وليس من تلقاء نفسي، فلا تسألوني آية غيره، ولا تسألوني تعيين الآجال، ولا تحسبوا أنكم تغيظونني بإعراضكم عن دعوتي؛ قل لهم ذلك مخوفا إياهم ومنذرا قطعا للعذر عليهم، لأنهم لا يتأثرون بقولك فهم كالصم لا يسمعونك فضلا عن أن يعملوا بقولك ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وإذا مسهم شيء قليل جدّا من عذاب الله ﷻ يوم القيامة ينادون على أنفسهم بالهلاك، ويعترفون أنهم حقّا كانوا ظالمين أنفسَهم بتكذيبهم الرسول ﷺ وشركهم بالله ﷻ؛ والنفح: العطاء النزر القليل، مع لفظ المرة "نفحة"، والتنكير، وإسناد المس إليها"مستهم"؛ تلك أربع مبالغات في قلة هذا العذاب؛ فما بالك بعذاب أقروا على أنفسهم باستحقاقه وهم لم يطيقوا تحمل نزريسير منه؟! ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ ونعيّن لأهل يوم القيامة ميزانا عادلا؛ بحيث لا يظلم أحد شيئا بزيادة سيئة على عمله أو إنقاص حسنة منه، أو نقص ثواب أو زيادة عقاب، وإن كان عمله غاية في القلة والحقارة فإنا سنجازي عليه الجزاء الأوفى، ولا أحد أعلم منا بدقائق ما يعملون، ولا أحد أقدر منا على ضبطها وتقويمها، والميزان يوم القيامة تمثيل للعدل المطلق الذي ينتفي معه أدنى ظلم؛ بحيث يحاسب كل الناس بالمقتضيات نفسها، وهو مقياس واحد جمع لتعدد ما يقاس وفقه من أعمال.

١٠. قصة موسى عليه السلام وتذكير بفضل التوراة والقرآن وذكر لخصائصهما

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٠)﴾.

لما أقام الله ﷻ الحجة على المشركين بالدلائل العقلية والنقلية على التوحيد والنبوة؛ أقام أدلة تاريخية بشواهد التاريخ وأخبار الأمم السابقة و أنبيائهم، على أن رسالاتهم نظيرة ما جاء به محمد ﷺ، وأن ما لاقوا من أقوامهم مثل الذي لاقى، تسلية له ولكي يقتدي بهم في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الدعوة. وفي إيراد قصص الأنبياء فيما يلي من الآيات تفصيل لما بنيت عليه السورة ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ "ولقد" جواب قسم محذوف، أي: والله لقد آتينا نبي الله

موسى عليه السلام وأخاه هارون كتابا هو التوراة؛ فارقا بين الحق والباطل، ونورا يزيل ظلمة القلب وعلما يهتدى به، وذكرا يتعظ به المتقون، وهذه الصفات كلها للتوراة؛ فهي فرقان وهي ضياء وهي ذكر. ولقد بدئت الآية بواو القسم .والمقسم به مقدر. تنزيلا للمشركين منزلة من ينكر القصة لجهل بعضهم بها، وتناسيهم إياها، وغفلتهم عنها ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ المتقون الذين تكون لهم التوراة ضياء وذكرا هم الذين يخافون ربهم في سرهم؛ فيمتثلون أمره ويجتنبون نهيه؛ لا رياء بل خوفا من قيام الساعة، واستعدادا لها؛ على عكس المستعجلين المكذبين بها ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ وهذا القرآن الذي هو حاضر في أذهانكم وتتلونه بألسنتكم، وهو جامع كل خير في ألفاظه وبيانه وهديه وتذكيره وسهولة تلاوته، أفتنكرونه وهو غاية في الظهور؟!

١١. قصة إبراهيم عليه السلام وتدرجه في إعمال الدليل العقلي لإبطال عقيدة قومه ودعوتهم إلى التوحيد

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: واللهِ لقد أعطينا إبراهيم عليه السلام هداه وما فيه صلاحه في الدين والدنيا قبل نبوته، وقبل موسى وهارون، وكنا على علم بأنه أهل للنبوة؛ وكانت شريعة إبراهيم أشهر الشرائع قبل موسى، وهو أول من حارب الشرك و أقام التوحيد بالأدلة والبراهين العقلية. وإضافة إيتاءه الرشد إلى ضمير الجلالة"آتينا" تعظيم للرشد الذي أوتيه عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ وممّا آتيناه من الرشد؛ أنه سأل أباه وقومه مستخفا بآلهتهم واصفا إياها بالتماثيل -مع علمه بتعظيمهم لها- وفي ذلك إيماء إلى انتفاء حقيقتها مع وصفها بالمعبودية؛ ممهدا بسؤاله لتخطئتهم في عبادتهم إياها واعتكافهم عليها ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؟ ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ أجابوه جواب مقلد لا حجة له، متوهمين

إقناعه بجوابهم على أنها عادة آبائهم، أملا منهم أن يفعل مثلهم فيقدس عمل الآباء صارفا نظره عن الحق ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أجابهم في الفور مؤكدا كلامه بالقسم: كان آباؤكم في ضلال واضح بيّن وكانوا متمكنين فيه، و أنتم مستمرون في ذلك الضلال ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ سألوه متفاجئين هل هذا الذي تقوله هو الحق من اعتقادك؟ أم تقوله مازحا لاعبا؟! ولاستبعادهم أن يكون آباؤهم في ضلال ويقينهم أن آباءهم على الحق شكّوا في مدى جدية كلام إبراهيم عليه السلام ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عدل إبراهيم عليه السلام عن الجواب عن كون كلامه حقا جادا أم لعبا مازحا، إلى قوله الجاد: بل ربكم الحق هو الذي خلق السموات والأرض، وليست الأصنام المصنوعة من أجزاء الأرض إلا مخلوقة مربوبة! و أنا من الشاهدين لله سبحانه وتعالى بالوحدانية والربوبية ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ توعدهم إبراهيم عليه السلام مقسما عليهم؛ بأنه سيجتهد في إلحاق الأذى بأصنامهم حين يخرجون ويتركونها، وقال "لأكيدن" مشاكلة لاعتقاد المخاطبين بأن آلهتهم تدفع عن نفسها السوء، فلا يستطيع أن يمسها به إلا على سبيل الكيد، و"الكيد" الاحتيال لإلحاق الضرّ بصورة غير مكروهة عند المتضرر ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ انتقل إبراهيم عليه السلام في إبطال عقيدتهم من القول إلى الفعل، و انتهز فرصة غياب القوم فحطم الأصنام كلها وجعلها قطعا، وترك كبير الأصنام، ليحتج به عليهم حين يرجعون ويسألونه.

١٢. قصة إبراهيم عليه السلام وموقف قومه من تكسيره أصنامهم والنقاش العقلي لهم

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥)﴾.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلما رجعوا من غيبتهم إلى أصنامهم ورأوا ما فُعل بها، تساءلوا موبخين منكرين على الفاعل فعلته: من فعل هذا التحطيم بآلهتنا؟! إنه لظالم أشد

الظلم، لجراءته على كسر آلهتنا، التي تستحق منه التعظيم! وهم -كما دل السياق- فريق ممن لم يسمع توعده على الكيد بها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال فريق آخر منهم -وهم ممن سمع توعده على الكيد بها-: سمعنا من قبل شابا في أول شبابه يذكر الآلهة بسوء يقال له إبراهيم ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ قال أشراف القوم وكبراؤهم آمرين مرؤوسيهم: أحضروه ليعترف بفعلته بمرأى من الناس، وليشهدوا عليه فلا يؤخذ على غير بينة، وليشهدوا عقابه فيكون لهم عبرة؛ وكان غرض إبراهيم بالذي فعله هو اجتماعهم في محفل عظيم فيه يقيم عليهم الحجة ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فجيء به وقال له الأشراف منكرين موبخين إياه: هل أنت الذي حطمت آلهتنا يا إبراهيم؟! ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ قال إبراهيم للأشراف من قومه معرّضا بغباوتهم وليحملهم على الاعتراف بعجز آلهتهم: بل كسرها الصنم الأكبر! قالها تنبيها لهم بأن لو كان هذا حقا إلها لما رضي بأن يُعتدى على شركائه، قاصدا بذلك تشكيكهم؛ بمعنى: لعل كبيرهم هو من فعل بهم هذا؛ فاسألوها هي ستجيبكم على حد زعمكم بأنها آلهة تنفع ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أسقط في أيدي القوم، فراحوا يتلاومون لما تفكروا وتدبروا مع أنفسهم فقالوا لها أو قال بعضهم لبعض أنتم الظالمون إذ عبدتم آلهة لا تملك أن ترد عن نفسها يد مكسرها ولا تنطق! ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ بعد أن أفحمتهم حجة إبراهيم عليه السلام واعترفوا بضلالهم، انقلبوا في رأيهم رأسا على عقب وعادوا للضلال، فقالوا له: ما تقصد من طلبك إيانا بسؤالها؟ فقد علمت كما علمنا أن هذه الآلهة لا تنطق! فأقاموا حجته على أنفسهم بما لحقهم من الحيرة. و"النكس" قلب أعلى الشيء إلى أسفله وأسفله إلى أعلاه.

١٣. قصة إبراهيم عليه السلام: تعنت قومه وتآمرهم عليه بإحراقه ونصرة الله له

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)﴾.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ قال إبراهيم أمع علمكم بعجز هذه الأصنام تعبدونها، وهي لا تنفع من عبدها ولا تضر من عاداها؟! ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ثم قال محقرا آلهتهم مُبديا ضجره من إصرارهم على عبادتها: تبا لكم ولآلهتكم التي تعبدون من دون الله، أفلا تتفكرون فتعقلوا وتدركوا قبح صنيعكم؟! ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ لما بطلت حججهم و اندحر باطلهم أمام الحق، لجؤوا إلى استعمال سلطانهم وقوتهم، فتآمروا بحرقه بالنار حرقا متلفا؛ فقالوا أحرقوا إبراهيم انتقاما منه ونصرة لآلهتكم إن كنتم حقا ناصريها ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ لما ألقى رؤساء القوم إبراهيم عليه السلام في النار انتصر الله ﷻ له فأمر النار بأن تكون بردا وسلاما على غير عادتها؛ فلا تحرق إبراهيم حين يلقى فيها، فامتنعت عن إحراقه من غير أن تكون عليه مظلمة؛ بل بقيت عليه مضيئة مشرقة فكانت بذلك عليه سلاما، ولم تؤذه ببردها الشديد ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ودبر قوم إبراهيم له تدبيرا خفيا ليودي به، فجعلناهم خاسرين غاية الخسارة؛ فكان ذلك نجاة ومعجزة له.

١٤. قصة إبراهيم عليه السلام: نعمة الله عليه بالولد الصالح و إنجاؤه إياه ولوطا إلى الأرض المباركة

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ بعد أن نجى الله إبراهيم من النار، نجاه من الإقامة في دار الشرك، ونجى معه لوطا إلى أرض قيل هي أرض الشام التي بها المسجد الأقصى بفلسطين جنوب غرب بلاد الشام؛ وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ٠١]، وقد أحاطها الله ﷻ بالأمن وكان أكثر الأنبياء منها، و أنعم على الساكنين فيها بخصوبة الأرض ورخاء العيش ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ومن نعم الله ﷻ على إبراهيم عليه السلام أن رزقه إسحاق ولدا، استجابة لدعائه في قول الله ﷻ -حكاية عن إبراهيم- ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، ثم زاده من إسحاق الولد الثاني تفضلا منه وتكرما من غير سؤال؛ وهو يعقوب بن إسحاق، وجعل الله

كلا الولدين صالحا دنيا وأخرى. و"النافلة" الزيادة غير الموعودة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ لما أنعم الله ﷻ على إبراهيم ولوط وإسحاق ويعقوب بأن جعلهم صالحين؛ جعلهم قدوة للناس يدعونهم إلى عبادة الله و اتباع دينه بأمره، وأوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات ويحثوا الناس على فعلها ويقيموا الصلاة ويحثوهم على إقامتها ويؤدوا الزكاة ويحثوهم على أدائها، وخص الصلاة بالذكر لأنها أعظم العبادات البدنية، كما خص الزكاة بذلك لأنها أعظم العبادات المالية وهما من فعل الخيرات؛ فامتثلوا لذلك وكانوا موفّين بعهد العبودية لله.

١٥. قصة لوط عليه السلام ونجاته من قومه الفاسقين

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾.

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ لما كذب إبراهيمَ قومُه كان لوط قد آمن به وهاجر معه؛ فأنعم الله عليه و آتاه حسن القضاء والفصل في الخصومات، وجعله نبيئا و آتاه من العلم ما ينبغي للأنبياء، وأرسله إلى أهل قرية هم قوم غير قوم إبراهيم، وبشريعة غير شريعته فكذبوه فدمرهم الله وأهلكهم بعذابه، ونجاه من القرية إذ أهلكهم لما يعملون من الخبائث؛ و أقبحها فاحشة قوم لوط، إنهم كانوا أهل سوء بما يأتون من المنكرات خارجين عن طاعة الله و اتباع لوط ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وأدخله الله في رحمته بأن جعله من أهل جنته، لأنه كان من العاملين بطاعة الله ﷻ.

١٦. قصة نوح عليه السلام ونجاتُه من الطوفان، وهلاكُ قومه

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)﴾.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ واذكر أيها الرسول ﷺ حين دعا نوح ربه لينصره ويهلك قومه؛ كما قال الله ﷻ حكاية عنه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ

﴾[القمر: ١٠] وقال: ﴿وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ [نوح: ٢٦] وقد كان ذلك قبلك وقبل إبراهيم ولوط، ولقد أقام فيهم تسعمئة وخمسين سنة يدعوهم، فآمن به قلة منهم وكذبه الباقون، فاستجاب الله دعاءه ونجاه ومعه من آمن به من الطوفان الذي أرسله على قومه ليهلكهم، وكان شديدا عليهم لما ألحقه بهم من الحزن والخوف الشديد. "والكرب" شدة حزن النفس بسبب خوف أو حزن. ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ونصره الله ﷻ من قومه الذين كذبوا بما جاءهم من آيات تدل على صدقه ونبوته، نصرا قويا؛ مانعا إياه من أن ينالوه بسوء، إنهم كانوا قوم قبح منهمكين في الشرّ فأغرقهم الله ﷻ بالطوفان جميعا.

١٧. قصة داود وسليمان عليهما السلام وحسن القضاء.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)﴾.

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ اذكر أيها الرسول ﷺ نبيّ الله داود عليه السلام و ابنه سليمان عليه السلام، لما حكما في شأن زرع رعت فيه غنم قوم ليلا من دون راع فأفسدته، وكنا مطلعين على حكمهما شاهدين عليه. فقد كان داود عليه السلام الأولَ في بني إسرائيل من جمع له بين النبوة والملك. وفي قصة داود وسليمان عليهما السلام تنبيه إلى أصل الاجتهاد وفقه القضاء ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ لما قضى داود عليه السلام في قضية الحرث قضاء عادلا، ألهم الله ﷻ سليمان عليه السلام إلى حكم عادل أيضا وفيه رفق بكل من صاحب الزرع وصاحب الغنم، فرجح داود عليه السلام حكم سليمان عليه السلام، لما رآه فهم القضية بشكل أعمق، وكلا منهما آتاه الله ﷻ النبوة والعلم بأمور الدين، وجعل الله الجبال والطير تردد مع داود عليه السلام التسبيح إذا سبح أو تلا الزبور؛ بكيفية اُختلف فيها؛ هل التسبيح حقيقة أو هو تسبيح بلسان الحال، وكنا قادرين على ذلك لكمال قدرتنا ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ

مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ وعلمنا داود صنع الدروع بالحديد لتقيكم ضربات أعدائكم في الحرب، فالجدير بكم أن تكونوا شاكرين، و"فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ" استفهام أريد به الأمر والتقريع.

١٨. تسخير الريح والشياطين لسليمان عليه السلام

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وسخرنا لسليمان الريح تجري بأمره -حين يدعو الله ﷻ بذلك- مسرعة في سيرها مع لين؛ تنقله وجنده حيث أراد، وتسير سفنه إلى أرض الشام التي هي مقر ملكه وهي أرض مباركة، ولم نعطه ذلك إلا لحكمة، ونعلم أن ذلك يزيده خضوعا لله ﷻ ودعوة إليه ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ وسخرنا له من الشياطين من يغوص في أعماق البحار ويستخرج اللؤلؤ والجواهر، ولا يمتنعون عن أي عمل يأمرهم به، ويعملون أعمالا أخرى غير الغوص مما لا يقدر عليه البشر، وكنا مانعيهم من عصيان أمره، أو إفساد ما عملوا، ومن أن يؤذوا الناس أو يقتلوهم.

١٩. قصة أيوب عليه السلام سيد الصابرين وكشف الضر عنه

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ واذكر حين نادى أيوب عليه السلام ربه بأني أصابني الضر؛ وقد فقد ولده وزوجه وماله وأصابه ضر كبير، وعبر عنه بالمس تأدبا مع الله ﷻ، ثم قال أنت الرحيم غاية الرحمة، بعد ذكر حاله التي تقتضي الرحمة والشفقة؛ تعريضا بطلبه كشف الضر تلطفا في الدعاء. "المسّ" الإصابة الخفيفة، و"الضُّر" بالضم ما يصيب الجسد من مرض وهزال ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ فاستجبنا دعاءه؛ بشفائنا إياه من مرضه؛ ولقد أمره الله أن يضرب برجله الأرض ففعل فنبعت عين ماء واغتسل منها فبرئ من مرضه؛ قال ﷻ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢] وأعدنا

إليه زوجه وما فقد من الولد ورزقناه منها مثلهم؛ ذلك رحمة منا إياه، وتذكيرا للعابدين من بعده بأن يصبروا كما صبر أيوب عليه السلام ولا يجزعوا، ليثابوا كما أثيب.

٢٠. قصة إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام وجزاء الصبر والصلاح

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)﴾.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ لما ذكر الله ﷻ أيوب عليه السلام أكبر مثال في الصبر، ذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل لأنهم اشتركوا في ميزة واحدة هي الصبر؛ واذكر أيها الرسول ﷺ إسماعيل وإدريس وذا الكفل؛ كل هؤلاء من الصابرين على الشدائد وعلى التكاليف وطاعة الله ﷻ وعن معصيته. وإدريس عليه السلام نبي من أنبياء الله، وأشهر ما قيل في نسبه أنه ينتهي إلى شيث بن آدم، وهو أيضا من أجداد نوح عليه السلام، وأما ذو الكفل فهو من بني إسرائيل واختلف المفسرون في كونه نبيا، والأرجح أنه نبي لورود ذكره بين الأنبياء ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وبصبرهم وصلاحهم أدخلناهم في الجنة لأنهم كانوا كاملي الصلاح.

٢١. قصة يونس عليه السلام وخروجه من قومه، ثم التقام الحوت له ونجاته من بطنه

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَعَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)﴾.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَعَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ واذكر لقومك نبي الله يونس عليه السلام ؛ لما مكث في قومه يدعوهم إلى التوحيد، فلم يستجيبوا لدعوته، فخرج دون إذن ربه تاركا مدينتهم، وهو غاضب أشد الغضب، وظن بأن الله ﷻ لن يضيق عليه في الأمر، فركب البحر على ظهر سفينة؛ ولما كانت في اللجة أوشكت على الغرق، فاقترع الركاب على أحدهم ليلقى في البحر تخفيفا عن ثقل السفينة، فخرجت على يونس فألقي في البحر والتقمه الحوت، فنادى وهو في ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل ربه أن لا إله إلا أنت تنزهت عن النقص والظلم، لقد كنت ظالما بهجرتي قومي دون إذنك و أنا تائب إليك، و"نَقْدِر" أي

نضيّق ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ فاستجبنا دعاءه و أكرمناه؛ فلم يهضم الحوت جسمه، فكان له بطنه كالسجن، ثم طرحه في ساحل البحر ونجيناه من غمه، وكذلك ننجي من الغم كل مؤمن تائب مخلص في الدعاء.

٢٢. قصة زكريا وولده يحي عليهما السلام وقصة مريم وعفتها وحصانتها

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (٩١)﴾.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ واذكر يا محمد نبينا زكريا إذ دعا ربه أن يرزقه ولدا يرثه، فلا يموت دون أن يعقب من يخلفه، ثم قال -تلطفا في الدعاء- أنت خير من يبقى بعدي من الوارثين تعريضا منه بأن الكل فان غير الله ﷻ ﴿فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ﴾ فأجبنا نداءه، ورزقناه ولدا اسمه يحيى، وأصلحنا له زوجه فصارت ولودا بعد أن كانت عاقرا – على رأي أكثر المفسرين -، أو جعلناها صالحة لكل خير خالصة له.

إن الأنبياء المذكورين جميعا إنما أجبنا دعواتهم ونصرناهم لأنهم كانوا يبادرون إلى مسالك الخير، ويجِدّون في تحصيلها، ويدعوننا راغبين في ثوابنا وقبولنا أعمالهم، خائفين من عقابنا وردّنا أعمالهم، وكانوا لله خاضعين متواضعين ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَجَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ﴾ واذكر أيها الرسول ﷺ قصة مريم ابنة عمران البتول التي أحصنت فرجها من النكاح ومن السفاح وكان التبتل في شرعهم -كما عند القطب في التيسير- جائزا للرجال والنساء؛ أما في شريعة محمد ﷺ فهو غير مشروع إلا لمن لم يجد أو لم يحتج إلى الزواج،[٢] فأرسلنا إليها روحا من عندنا، أي ملكا من عندنا أو هو الملك جبريل؛ فنفخ فيها من روحنا فحملت من غير زوج على خلاف المعهود في سنة الله ﷻ في الخلق؛ فكانت بذلك هي و ابنها آية للإنس والجن، تدل على أن الله ﷻ على كل شيء قدير.

---

[2] محمد بن يوسف اطفيش، **تيسير التفسير**، ج٩، ص٣٤٢.

٢٣. غاية الرسالات السماوية واحدة هي التوحيد، وسنة الله ووعده لا يتخلفان

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أيها المخاطبون إن ملة التوحيد وملة الإسلام ملة واحدة؛ متفق عليها بين الأنبياء جميعهم، وإن اختلفت الشرائع، وهي الأمة الواحدة التي يجب أن تكونوا عليها، و أنا إلهكم وربكم فاعبدوني مخلصين ولا تشركوا بي شيئا ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ واختلف عن الأنبياء مشركو أقوامهم فتفرقوا في دينهم ، وجعلوا أمر دينهم فرقا يتقاسمونه لكل منهم شيعة وحزب، وكلهم في النهاية راجعون إلينا للحساب والجزاء ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ وعند الحساب يجازى كل بحسب عمله؛ فمن يعمل القدر الواجب من الصالحات أو يزيد عليه مع التزامه الإيمان بما يجب الإيمان به فلا بطلان لعمله، ولا جحود في حقه؛ بل جزاؤه الأوفى عندنا، و إننا حتما سنكتب سعيه في صحيفته ليجده بعد موته فيُوفاه ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وممنوع على أهل قرية أهلكناهم أنهم لا يرجعون إلينا عند البعث يوم القيامة لنحاسبهم ونجازيهم، إذ الإهلاك الدنيوي ليس جزاءهم الوافي ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ يبقى هؤلاء المهلكون ممنوعين من الرجوع إلى أن يفتح سد ياجوج وماجوج، الذي بناه ذو القرنين مانعا به إياهم من الإفساد في الأرض؛ وفتحه من أمارات قيام الساعة، فإذا فتح صار هؤلاء القوم -لكثرتهم- من كل مرتفع ينزلون مسرعين للإفساد في الأرض. و"الحدب" المرتفع من الأرض، "ينسلون" يمشون النَّسَلاَن: وهو مشي الذئب؛ والمراد به -مجازا- الإسراع في المشي ﴿وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ وقرب قيام الساعة قربا شديدا فظهرت أهواله العظام، فإذا بأعين الذين كفروا مفتوحة لا تطرف، وهم مع ذلك لا يكادون يبصرون من هول

ما أصابهم، ويدعون على أنفسهم بالهلاك بقولهم: يا ويلنا، ثم يقرون بأنهم كانوا في الدنيا غافلين عن أدلة البعث، ثم يضربون عنه بقولهم "بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ" لأنهم قد أنذروا وذكروا بها، فظلموا أنفسهم بالمكابرة والتكذيب والإعراض.

٢٤. دخول المشركين ومعبوديهم النار، ونجاة المؤمنين منها وتنعمهم في الجنة

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ يقال للكفاروقد أقروا على أنفسهم بالظلم بعبادة الأصنام: إنكم وأصنامكم وما كنتم تعبدون من الإنس والجن والشياطين مرميون في جهنم، وداخلون فيها معا؛ وفي إبصارهم آلهتهم معهم في جهنم، وهي التي طالما عبدوها لتشفع فيهم وتنجيهم، زيادة غمّ على غمّهم، فتحسروا بذلك تحسرا شديدا على عبادتهم الضائعة. و"الحصب" اسم بمعنى المحصوب به؛ أي المرمي به ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لوكان هؤلاء المعبودون من دون الله ﷻ آلهة حقا لاستحقوا تلك العبادة وما دخلوا بها النار، والآن كلٌّ من المعبودين بغيرحق وعابديهم خالدون في النارأبدا لا يخرجون، واستثني من هؤلاء المعبودين الملائكة، وعيسى بن مريم، وعزير؛ لأنهم لم يرضوا بأن يُعبدوا من دون الله ﷻ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لهم صوت نفس يخرج من أقصى الجوف من شدة الألم والعذاب وهم في جهنم لا يسمعون؛ لأنهم كما يقول ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القيامة على وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ [الإسراء: ٩٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ إن الذين سبقت لهم السعادة والتوفيق للأعمال الصالحة –وهم كل مؤمن مات على الإيمان والتوبة والعمل الصالح- أولئك هم بعيدون عن النار، لا يصلهم حرها ولا يذوقون عذابها ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ لا يسمعون صوت لهيبها من شدة بعدهم عنها، وهم خالدون في الجنة لا يخرجون منها، ولا يكون

خلودهم إلا فيما اشتهت أنفسهم. و"الحسيس" الصوت الذي يسمع من بعيد ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ لا يصيبهم خوف عند نفخة البعث يوم يخرجون من قبورهم، وتستقبلهم الملائكة حين خروجهم، وتبشرهم بأن هذا يوم الفوزوالكرامة والمثوبة، الذي وعدتم به لقاء إيمانكم وطاعتكم لله ﷻ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ذلك في اليوم الذي نطوي فيه السماء كما تطوى الصحيفة، حفاظا على المكتوب فيها، ونعيد الكون كما كان أول مرة، ونبعث الموتى حفاة عراة كما ولدوا أول مرة، هذا وعد مؤكد علينا إنجازه، إنا قادرون على الوفاء به كما كنا فاعلين ما نعد به دائما.

٢٥. ميراث الجنة والخلافة والتمكين في الأرض

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)﴾.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ولقد قضينا قضاء حتما في الكتب المنزلة من عند الله بعدما كتب في اللوح المحفوظ، أن وراثة الأرض تكون لعباد الله الصالحين، وصلاح الإنسان للآخرة فيكون بالعمل بعبادة الله وطاعته وبه يُنال ميراث الجنة كما في قوله: ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وأما صلاح الإنسان في الدنيا فهو قيامه بما يصلح لعمارة الأرض والخلافة فيها؛ فيعمرها مبدعا فيها باستعمال عقله وبصيرته مستضيئا في ذلك بشرع الله ﷻ ومحققا به العبودية له، وهذا هو جوهر عبوديته ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ إن فيما ذكر في هذه السورة من المواعظ لقدرا كافيا لقوم آثروا طاعة الله ﷻ وعبادته كما رضي، وبهذا يكون تمكنهم في الأرض واستخلافهم فيها؛ قال ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [النُّور: ٥٥].

٢٦. النّبي ﷺ رحمة للعالمين وبشيرونذير

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ بعد ذكر قصص الأنبياء، وبيان أن القرآن كفاية ومنفعة للعابدين، بيّن الله الغرض من إرسال الرسول ﷺ؛ فكان منحصرا في كونه رحمة لكل العالَمين، إنسهم وجنهم، في الدين بتخليصهم من الجاهلية والضلال، وفي الدنيا بتخليصهم من الفتن والحروب، وهذه الرحمة تظهر بمظهرين؛ فأما الأول: فبتخلُّقِه ﷺ بخلق الرحمة كما قال عنه الله ﷻ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وأما الثاني فبإحاطة الرحمة بتفاصيل شريعته ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ قل لهم يا محمد ﷺ: ما يوحى إلي في شأن الله إلا أنه لا إله إلا هو وحده المستحق للعبادة فأسلموا له و انقادوا له، وحصر ما أوحي إليه في مضمونها لأنه أصل الشريعة وما سواه متفرع عنه ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ فإن أعرضوا عن التوحيد، وعن الإسلام، فأنذرهم بحلول ما توعدهم الله به، وقل أعلمتكم و أنتم مستوون جميعا دون تخصيص أحد منكم دون آخر، و أنا بريء منكم كما أنكم براء مني، و أنا و أنتم مستوون في العلم بما حذرتكم به، وإن ما وعدتم به من العذاب وقيام الساعة و اقع لا محالة، ولست بأعلم منكم متى يحل؛ فقد يكون قريبا وقد يكون بعيدا ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ إن الله ﷻ يعلم الغيب كله، فهو عليم بما تجهرون به من أقوالكم، ويعلم ما تكتمونه في ضمائركم وسر ائركم، وسيحاسبكم بكل ذلك ويجازيكم على صغيره وكبيره ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ ولست أدري حكمة تأخير العذاب عنكم، فلعله استدراج وامتحان لكم؛ لينظر الله كيف تعملون، ولتتمتعوا في الدنيا إلى أن يأتيكم العذاب أليما ﴿قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ قال النبي ﷺ رب عجل بالحكم بيني وبين قومي، فحكمك بالحق و اقع

لابد، وربنا -أيها الكفار- من أطلب منه العون على ما تصفونه به من الشرك والتكذيب، وهكذا أنذر النبي ﷺ الكفار بالاحتكام إلى الله ﷻ، وهددهم بالهزيمة أمام جند الله فكانت هزيمتهم يوم بدر.

تمّ بحمد الله تعالى تفسير سورة الأنبياء وتليها سورةُ الحج

سورةُ الحجّ مدنيّةٌ وبها آياتٌ مكّيّةٌ اختُلف في تحديدها، نزلت بعد سورة النّور وقبل سورةِ المنافقون، عدد آياتها ثمانٌ وسبعُون آية، وقد سمّيت باسم "الحجّ" لاشتمالها على بعضِ أحكام هذهِ الشّعيرةِ التي هي الرّكنُ الإسلاميّ الخامس؛ وبالأخصِّ على نداءِ الخليل عليه السلام إليه؛ والذي تضمّنه قولُه تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧] ولم يُعرف لها اسمٌ آخر، يقُول صاحبُ التّحرير والتّنوير: "كان نزولها قبل أن يُفرض الحجّ على المسلمين بالاتّفاق"[٣].

افتتحت السّورة بنبأٍ مخيفٍ بارعِ التّصوير والوصف لحقيقة فناء الدّنيا وقيام السّاعة، وبعدهُ نبّهت إلى أدلّةِ البعثِ، وفيها بيانٌ لعاقبةِ القرى المدمّرة، وجدالٌ لأهلِ الشّركِ وتقريرٌ للمنهج الحقّ في عبوديّةِ الله، وقد تحدّثت على غرار السّور المدنيّة عن جوانب تشريعيّةٍ عديدةٍ كأحكام الحجّ وآدابه وعن القتال مبيّنةً الحكمة منه؛ إلاّ أنّ الملاحظ فيها اشتمالُها على خصائص السّور المكّيّةِ من تعظيم الخالق والاهتمام المستفيض بدلائل قدرته والحديث عن البعث والجزاء بدقائق الأوصاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٧. أهوالُ قيامِ السّاعة وأحوال النّاس معها

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ(٤)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ يا أيّها النّاسُ خافُوا إلهكم الذي خلقكم واحذرُوا عقابه بامتثال ما أمربه واجتناب ما نهى عنه، والخطاب لجميعِ النّاس كلٌّ على رُتبته، واستعمل لفظ الرّبوبيّةِ لأنّه يوحي بمعنى: خافُوا مالك أمركم والمراعي لما يصلُح لكم، و افتتاحُ السّورةِ بهذا المطلعِ الذي اشتهرت به السّور المكّيّة لا يُنافي كونها مدنيّةً؛ وهو مطلعٌ ينبئ عن أمرٍ هامٍّ؛ فلذلك قال بعدهُ معلّلاً الأمر بالتّقوى: ﴿إِنَّ

[3] الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج: ١٧، ص: ١٧٩.

زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ استيقنُوا أنّ زلزال فناء الدّنيا حدثٌ فظيع لا يعلمُ حقيقته إلاّ الله؛ ولفظُ "شيء" مؤذنٌ بتلك النّكارةِ؛ كما فيه مبلغٌ من التّفظيع والتّهويل، وقد أكّد الكلام بـ"إن" لمزيدِ تصويرٍ لفظاعةِ تلكم الزّلزلة، وأضاف الزّلزلة إلى السّاعة لأنّها من أشراطها. ثمّ يذكر مو اقف تُفسّر مبهم لفظِ "عظيم" ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ وحينَ حلولها بكم ومشاهدتِها، وقدّمَ "يوم" على عامله"ترى" اهتمامًا بوقتِ السّاعة، والزّلزلة تسمع ولا ترى و إنّما أطلق الرّؤية على الحاصل من الهولِ بسببِها ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ تترُك كلُّ أمٍّ مرضعةٍ من الإنس أو غيرِهم ما تُرضعه لا تلتفت إليه مع أنّه أقربُ أحدٍ إليها؛ بعد أن كانت في حوادث حياتها المألوفة تفدي نفسها لأجلِ رضيعها، وذَكَر الأنثى بالأخصّ لأنّها أشفق؛ وقال"مرضعة" ولم يقل"مرضع" لأن مرضعة يطلق على المرأة في حال إرضاعها، أما مرضع فيطلق على من هي في مدة الإرضاع ولو لم تكن ترضع ولدها في ذلك الوقت، ولا شك أن ترك المرضعة لطفلها وهي ترضعه أشد ؛ وإذا ذهلت المرضعة عمن ترضعه فذهولِ البشرِ عامّةً عمّا هم فيه لشدة ذلك اليوم من باب أولى، و"تذهلُ" من الذّهول وهو الغفلةُ وعدم الانتباه، ولم يقل: عن ولدها و إنما قال: عما أرضعت لتأكيد أن الترك له وهي ترضعه ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ وتسقطُ كلّ حاملٍ من الإنس وغيرِهم ما كان مستقرًّا في رحمها، ولعلّ وضع الحمل بسبب الفزع حالٌ طبيعيّةٌ عند الأنثى؛ و إنّما اختصّ فزعُ السّاعة بأنّه عظيمٌ جدًّا لا تقوى أيُّ أنثى على تحمّله مهما بلغ صبرها، وذاتُ الحملِ كأولات الأحمال في دلالةِ ضمِّ الحمل إلى صاحبته ليكون وصفه بالوضع أشدّ وقعًا، ولعلَّ اختيار هذا المشهد تنبيهٌ باليومِ التي تشتغل فيه كلُّ نفسٍ بحالها ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ وتُشاهدُ العباد في هروبهم واضطرابهم كأنّهم سكارى غابت عقُولهم وليسُوا كذلك، وقال هنا"ترى" وفي أول السورة "ترونها" مع أن الخطاب فيهما واحد، وهو لكلِّ من سيشهدُ قيام السّاعة من باب التفنن في التعبير، واستعمل أسلوب الرّؤيةِ إيذانًا بأنّه مشهدٌ يلفتُ النّظر لشدّةِ بروزِه لا يكادُ يخفى على أحدٍ، وجاء بالمضارع استحضارًا لتلك الحال العجيبة ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ وليسُوا سكارى ولكن وقع عليهم عذاب الله الذي هو في غايةِ الشدّة فسلب عقولهم فتصرّفُوا تصرّف السّكارى، وعذابُ الله هنا الجزاء الأبديّ و إنّما هذه الأهوال فاتحتُه، والمؤمنُ محفوظٌ من الفزعِ فيها بإذنِ الله.

ثمّ ينتقلُ بنا إلى معالجة إحدى أحوال النّاس الذّميمة بعد أن عرض ما ينبغي أن يحملهم على أن يتّقُوا ربّهم؛ كأنّه قال ضمنا: من النّاسِ من استجاب للأمرِ بالتّقوى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومِن النّاسِ مَن يقُول في حقّ الله بغيرِ علمٍ؛ كمن قال: لن يبعث الله أحدًا، والمجادلة القول بنيّة المخاصمة؛ وحكى الفعل بالمضارع" يجادل" لاستحضارِ حاله الغريبة، والآية دليلٌ على وجوبِ تحرّي الحقّ قبل القولِ على الله ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ وهو بذلك يُطيعُ ويتّبعُ نهجَ مَن طردَ مِن الشّياطين مِن رحمةِ الله، والْمَريد المتجرّدُ عن الخيرِ وهو وصفٌ ملازمٌ للشّيطانِ، والشّيطان هنا كلّ خارجٍ عن طاعة الله بالتّمرّد وشمل إبليس وجنوده من بابِ أولى، وجعل اتّباعه لكلّ شيطانٍ مبالغةً في بيان انحرافه حيث كانت فيه قابليّةٌ لطاعتهم جميعًا مع عصيان الله بالمقابل، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ قضى الله بأنّه مَن أحبّ الشّيطان فإنّه سيُعميه عنِ الحقّ ثمّ يسوقه إلى عذابِ النّار الأليم، وضمير "عليه" عائدٌ إلى الشّيطان، والتّولّي حبٌّ بالقلبِ يتبعه اتّباعٌ بالجوارح، و"السّعير" مِن المسعُور وهو المشتعل، وقال: "يهديه" على سبيل التّهكّم فأصلُ الهدايةِ تكون للخيرِ، وبين "يُضلّه ويهديه" طباقٌ بارعٌ لطيفٌ.

٢٨. الاستدلالُ على حقيقةِ البعثِ بعد فناء الدّنيا

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)﴾.

ومن أبرزِ ما جادل فيه الكفّارُ الرّسُول ﷺ مسألةُ البعث؛ فيأتي إلى بيانها و إقامة البراهين عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾ يا أيّها النّاسُ إن كان لديكم شكّ بأنّ الله سيبعثكم جميعًا للحسابِ والجزاء، والنّاسُ هنا الكفّار؛ وعبّر بالرّيبِ واستعمل "إن" الذي تفيد الشك مع أنّهم يقطعون بإنكارِه ليبين أن البعث مع قوّةِ دلائله ليس محلّ إنكارٍ. ومَن راوده الريب حينًا فعليه أن يُعالج

ربه بالنّظرِ في أصلِ خلقه ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ فاذكرُوا بأنّا أوجدنا أصلكم الأوّل وهو آدم عليه السلام من تراب، والقادرُ على ذلك قادرٌ على بعثكم ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ثمّ أوجدناكم من سلالته عن طريقِ التّزاوج والإنجابِ بدايةً من قذفِ الرّجلِ للنّطفةِ في رحمِ المرأةِ، و"النّطفةُ" من نطفَ الماء إذا قطرَ تنبيهًا لضآلتها وحقارتها؛ وهي حيوانٌ دقيقٌ له رأسٌ وذنبٌ؛ وهي من بينِ زهاء ستّمئة مليون حيوانٍ منويٍّ في كلِّ قذفة للرّجل؛ لا ترى بالعينِ المجرّدة إلاّ بما يكبّرُها مئات المرّات ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ ثمّ يحوّلُ الله النّطفة إلى علقةٍ، وهي أشبه بقطعة دمٍ مجتمعةٍ تلصقُ بجدارِ الرّحمِ، و"ثمّ" أفادت مهلةً زمنيّةً وقد دقّقها علماء الأجنّة ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ثمّ يجعلُ الله العلقة مضغةً، قد تكون تامّة الخلقِ وقد تكتملُ بعد ذلك شيئًا فشيئًا،[4] ومعنى "مخلّقةٍ" ظاهرٌ عليها هيئةُ الخلقةِ، و"المضغةُ" قطعةُ لحمٍ؛ سمّيت بذلك لما عليها من آثار كأنّها المضغ أو لأنّها بقدرِ ما يُمضغ، وعبّر بالتّخليق دون الخلقِ لدقّة خلقة الإنسان وكثرةِ أجزائه وطولِ مدّةِ نموّه، وفي الآيةِ ما يُعرف بطباق السّلبِ ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ ذلك التّفصيلُ في شأنِ الخلقِ لنبيّن لكم قدرةَ الله في الخلقِ، وحذف المفعول لتذهب النّفسُ في التّقديرِ كلَّ مذهبٍ، ومَن قدر على الخلقِ فكيف لا يقوى على الإعادةِ! بل خلقُ النّاسِ في أحوالٍ مختلفةٍ وبمراحل متتابعةٍ يتداخلُ بعضُها مع بعضٍ أدعى للإعجابِ من البعثِ الواحد هيئةً وزمانًا ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ونجعلُ من نشاءُ أن يحيا في قرارة الرّحم إلى ساعةٍ معيّنةٍ يخرُج فيها إلى الدّنيا، والآيةُ تنبيهٌ إلى أنّ اختيار النّطفة التي تحيا بيدِه سبحانه؛ ثمّ تقريرُ استمراريّتها بيده؛ كما أنّها نبّهت إلى أنّ لحظات الميلاد مقدّرةٌ معلومة فليس ثمّة تقدّمٌ ولا تأخّرٌ إلاّ بتقديرٍ إلهيٍّ، ومن لطيفِ السّياق أنّه أورد في دليل البعثِ الخلق في الأرحام بعد أن ذكر وضع كلِّ ذات حملٍ حملها ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ وبعد تمام الحملِ يُخرجكم الله إلى الدّنيا صغارًا، و"طفلاً" يُطلقُ على الواحد والاثنين والجماعة بمعنى: أطفالاً، ويجوز القول بأنّه مفردٌ أراد به الجنس، وهكذا قضى الله بحكمته أن يتدرّجَ الصّغير عبر مراحلَ حتّى يقوى ويكتمل فكريًّا وجسديًّا ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ وبعد مرحلةِ الطّفولةِ والنّشأةِ تبلغُون مرحلة الفتوّةِ والقوّةِ؛ وانتقل إلى هذه المرحلة مباشرةً لأنّه بيت القصيدِ

---

[4] وقيل: "غير مخلّقةٍ" أي ناقصةٌ فتسقُط أو يولد الجنينُ ناقصًا، وأنكر ابن عاشُور صحّةَ هذا التّأويل. يُنظر: **التحرير والتنوير**، ج: ١٧، ص: ١٩٨.

من الاستدلالِ بالضّعفِ بعد القوّةِ، والأَشُدّ القوّة؛ جمع شدّةٍ أو شدٍّ وقيل مفردٌ بوزنِ الجمعِ، وكما فصّل في أحوال الحملِ يفصّل فيما بعدهُ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ وبعضُكم تلحقه الوفاةُ طفلاً أو قد بلغ أشدّهُ، وفي هذا الاعتراضِ تحذيرٌمن الاغترار بالحياةِ استئناسًا بزهرةِ الطّفولة أو حرارة الفتوّةِ؛ وليس المراد أنّ البعض الباقي لا يلحقه الموت لأنّه معلوم الحصول كمعلوميّةِ حصوله بعد أرذلِ العمر ولو لم يُذكر ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ وبعضُكم يعمّرُ إلى أن يبلغ أسوأَ مراحل العمرِ، وعبّر بالرّدّ لأنّ الكبر نزولٌ إلى ضعفِ الجسم وسفالة التّفكير وقلّة الفهم بعد الصّعودِ من ذلك طفلاً، وعدّهُ "أرذل العمر" لأنّها فترةٌ يستثقلُها الإنسان لفقدانِ أملِ رجوعِ القوّة إليه مرّةً أخرى ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ يكبُر فينسى كلَّ شيءٍ كلّما زادَ في العمر حتّى لا يبقَى في ذاكرته علمٌ؛ فاكتسابُ الجديدِ يقلُّ والحفاظُ على الموجودِ يزولُ كذلك شيئًا فشيئًا، وفي هذا تفسيرٌ للرّدّ؛ وبيانٌ لوصفِ العمرِ بالرّذالةِ على صيغةِ التّفضيلِ كأنّه قال: كلّما زادَ كبرًا زاد عمره رذالةً.

ثمّ ينعطفُ إلى دليلِ البعثِ الآخر انعطافًا رشيقًا على سبيلِ الارتقاء؛ فقد بدأَه بالرّؤيةِ لأنّه مشاهدٌ بخلافِ الخلقِ من ترابٍ أو نطفةٍ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ وتُشاهدُ أرضَ الزّراعةِ ساكنةً فارغةً لا نباتَ فيها، والمخاطبُ كلّ عاقلٍ له بصيرةٌ نافذةٌ، و"هامدة" من الهمودِ وهو السّكون والخمود ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وإذا ما أنزلنا ماء الغيث عليها انشقّت واهتزّ ترابها لنباتٍ يخرُج منها لينمو فوق ظهرها ويعلُو، و"ربت" من ربَا الشّيء إذا زادَ؛ وإنّما يزيدُ ما فوقها من النّباتِ حجمًا وكمًّا كلّمَا عاهدها الماء، أو الرُّبُوّ للأرضِ أي ارتفاع ترابها بعد أن يهزّه النّباتُ من تحته، وفي تصوير هذا الاهتزاز استعارةٌ لحالِ النّائم الذي أصابته صبّةٌ من الماء فهرع قائمًا، وفي الآية إعجاز علمي، فقد ثبت علميا أن ذرات التربة بعد نزول المطر تتحرك ويكبر حجمها، وأول من اكتشف ذلك العالم براون، ولذا سميت بهزة براون، وقد سبقه القرآن الكريم إلى ذلك ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ وأخرج الله منها بسبب الماءِ من شتّى صنوفِ النّباتِ الجميلِ المبهج، والزّوجُ هنا بمعنى النّوعِ، وذكرُ الابتهاجِ هنا تلميحٌ إلى أنّ الله لا تعجزُه كثرةُ الأزواجِ ليصوّرها جميعًا على الحسنِ والنّضارةِ؛ ومجرّد خلقها لا يُعجزهُ من باب أولى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ ذلك المشهدُ في النّباتِ دليلٌ قاطعٌ على أنّ الله هو القائمُ المتصرّف، بدأَ بهذا تعليمًا لأسلوب مجادلةِ من يُجادلُ في الله بغيرِ علمٍ؛ هل هو يعرفُ الله حقًّا أو لا؟ فإذا عرفه

حقّ المعرفةِ علم بسهولةٍ: ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أنّ الله هو المحيي للموتى يوم البعث بعد فنائهم جميعًا، وعبّر بالمضارع"يحي" لإفادةِ تجدّد إحيائه لما هو في حكم الموتى كالنّطفةِ والأرض ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وأنّ الله قادرٌ على فعلِ كلّ شيءٍ تصوّرهُ الإنسانُ بعيدًا أو مستحيلاً، وعدل عن قادرٍ إلى قديرٍ للمبالغة ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وأنّ قيام السّاعةِ آتٍ لا شكَّ في حلوله؛ وكلّ آتٍ قريب، واستعمل اسم الفاعل لأنّه أقوى دلالةً على التّحقّق ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ وأنّ الله يخرجُ كلَّ النّاسِ من قبورِهم للحسابِ والجزاء، ذكر إحياء الموتى أوّلاً ليشمل كلَّ أحوالِ الوفاةِ ثمَّ ذكر القبور تخصيصًا لأنّه ليس كلُّ الموتى نالُوا حظّهم من القبرِ.

٢٩. أصنافُ النّاسِ مع قبُول الدّعوةِ وذكرُ الملل السّتِّ

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ(٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ(١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)﴾.

ثمّ يعرضُ الله نماذجَ لأحوالِ النّاس الذّميمة تحذيرًا منها ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ وبعضُ النّاس يقول في حقّ الله ورسوله وكتابه بلا تثبّتٍ ولا درايةٍ وليس له منهجٌ واضحٌ يتبعُه ولا دستوريّنٌ من الله يرشدُه متبعا في ذلك هواه، والمراد لم يُعمل عقله ولا استأنس بمن يُرشدُه من البشرِ أو من الكتبِ السّماويّة، وجدّد ذكر ذلك استنكارًا وتشنيعًا عليهم ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ مديرًا ظهرهُ ولاويًا رقبته عن الحقّ ليصدّ النّاس عن طريقِ الله القويم، والثّنيُ

اللّيُّ واللّفُّ؛ والعِطف الجَنب والمنكب، وتلك كنايةٌ عن التّكبّر والخيلاء؛ وهي حالٌ أشبه بتصعير الخدِّ، ولعلّ هذا الصّنف من المتبوعين؛ والآية السّابقة التي فيها ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ إشارةٌ إلى الأتباع ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ينالُه في الدّنيا عذابُ الخزي والمهانة؛ بالحرمان من السّعادةِ وبالضّيقِ واشتداد الأوضاع وبسقوط حجّته وانخذاله أمام الحقّ ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وندخله يوم القيامة عذاب الحرقِ الدّائم، والتّعبير هنا بالذّوقِ كنايةٌ عن الإصابة البالغة الصّادمة؛ ولو كان العذاب في مدّةٍ محدودةٍ لقال: من عذابِ الحريق. قائلينَ له: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ ذلك العذابُ النّازلُ عليك بسببِ أعمالك السّيّئة، و"قدّمت" أسلفت، وما قدّمته اليد مجازٌ عن الأعمال لأنّها سببٌ لها، وقال"قدّمت" ولم يقل"فعلت" تنبيهًا إلى أنّ حركاتِنا محفوظة وأنّ ما نعملُه نقدّمه حتّى نجده عند الله حاضرًا، وفي الآيةِ التفاتٌ عن الغيبةِ "نذيقه" إلى الخطابِ"يداك" لتقويةِ النّكيرِ على العاصي ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ولتعلم أنّ ذلك العذاب كلّه بسببِ ما قدّمتَ ليس فيه حظٌّ من ظلم الله فهو لا يظلمُ عبادهُ في شيء، وفي هذا تنبيهٌ إلى تنزيه الله عن الظّلم إذا ذكر العذاب، و"ظلاّم" صيغة مبالغة بمعنى ليس بذي ظلمٍ مطلقًا مهما حقُر أو عظُم.

وعن أحوالِ العباد المنبوذةِ كذلك قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ ومن النّاس صنفٌ يسعى إلى عبادةِ الله لكن ليست له مبادئ ثابتةٌ، وإنما على طرف من الدين لا ثبات له فيه ؛ والآية تريد حديثي العهد بالإسلام من باب أولى، وحرفُ الشّيء طرفه وجانبه، وفي الآية تشبيهٌ بديعٌ لحال المنافقين بمن يقوم بعملٍ على حافّةِ هاويةٍ فأدنى هزّة ستهوي به؛ أو بحال السّاعي إلى الحرب واقفًا في حافّةِ الصّفِ إن شمّ ريح الهزيمة لاذَ بالفرار، وزاد تبيينًا لذلك بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ فإذا ناله من الله ما هو خيرٌله كالمال والسّرور ارتاح بسببه إلى الإسلام، روي عن ابن عبّاسٍ في تفسيرِه للآية؛ قال: «كان الرّجل يقدَمُ المدينة، فإن وَلَدت امرأتُه غُلاما، ونُتِجَت خيلُه، قال هذا دينٌ صالح، وإن لم تلد امرأتُه ولم تُنتَج خيلُه، قال: هذا دينُ سوءٍ».[5] ومقابل ذلك ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ وإن مسّته مصيبةٌ في عرضه أو ماله تبدّل حاله وتغيّر؛ حيث لم يكن مخلصًا في إسلامه وإنّما اتّخذ منه مطيّةً لتسيير مصالحه حتّى إذا تحرّك الضّرّ من تحته انبثق ما كان في سريرته مخفيًّا، وعبّر

---

[5] رواهُ البخاري، ك: تفسير القرآن، ب: ومن النّاس من يعبد الله على حرفٍ، ر: ٤٧٤٢، (٦/٩٨).

بالانقلاب على الوجه على سبيل الاستعارة بأخطر وضعيات الاصطدام والإصابة ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ خسر دنياهُ باضطرابه في المحن لا يدري المخرج منها؛ وخسر الآخرة باستحقاقه العذاب ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ تلك هي الخسارةُ الواضحةُ لأنّها تعاسةٌ في الدّارينِ ورجوع عن النّورِ بعد تحسّسه، واستعمل الإشارة وضمير الفصل إمعانًا في تعيينِ الخسران وتحديده، ومن أبرزِ أسباب خسارته أنّه: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ يتوسّلُ إلى غير الله من المخلُوقات يطلُبها لتقضي مصالحه في حالِ أنّها لا تقوى على ضرّه إن ترك دعاءها ولا تملك له منفعةً لو دعاها إلاّ بإذنِ الله ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ذلك السّبيلُ الذي سلكه هو منهج الضّلال البعيد عن الحقّ، وفي هذا تشبيهٌ لحالِهم بحالِ من توغّل في الصّحراء تائها يطمعُ في نجاةٍ لكنّ اتّجاهه لا يزيدُه عنها إلاّ بعدًا، والجمعُ بين الوصف بالخسران المبين والضّلال البعيد غايةٌ في تصوير خطورة منهج هؤلاء ﴿يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ يتوسّلُ إلى من يُظنُّ فيه الإضرار أكثر ممّا يتصوّرُ منه النّفع، وقيل: ذلك على الافتراض فقد أقرّ بأنّ معبوده لا يضرّهُ ولا ينفعُه؛ والمعنى لو افترضنا فيه ضرًّا أو نفعًا لكان الضّر منه أقرب وأوفر، والآية تضمّنت تسفيها لمن هذه حالُه، وبين الضّرّ والنّفع في الموضعينِ طباقٌ، وذلكم الدّعاء حالٌ عجيبةٌ أعقبها بقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ تعس المدعوّ من دون الله متولّى كما تعس مصاحبًا لأنّ هذين في الأصل ممّن يُتصوّرُ منهم الخير لا الشّرّ المحض، و"المولى" اسمٌ للمُتولّى طلبًا للنّصرة؛ و"العشيرُ" اسمٌ للمصاحب استئناسًا بجوارِه، وقيل معنى الآية: يدعو الكافر يوم القيامة متبرّئًا ممّن أفسد عليه دينه يقُول في دعائه: يا من ضرّهُ أقرب من نفعه لبئس الناصر والمصاحب أنت،واللاّم للابتداء؛ وهذا التّأويل أقرب لدفع التّكرير.

ومقابلةً لفريق الخسران يذكر الله أصحاب السّعادة والفوز ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ إنّ الله الكريم يكرم أهل الإيمان الصّادقين العاملين العمل الصّالح بمقتضى إيمانهم بالدّخولِ في جنّاتِ النّعيمِ الأبديّةِ التي بلغت غاية التّنعّم الذي لا يشوبه كدرٌ، وفي الآية منعوت محذوف تقديرُه: وعملوا الأعمال الصّالحات، والجنّات البساتينُ الجميلة التي تجنُّ ما تحتها أي تُغطّيه لكثافتها؛ غلب إطلاقُها في القرآنِ على عالم الفوزِ الأخرويّ بما شمل من عُمران وقصورٍ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ومن صورِ نعيمها الأنهار المختلفة المشارب التي تسيلُ تحتها؛ في هذا الموقع ونظائرِه

في القرآن تقديرُ مضافٍ يحسُن أن يكون: من تحتِ أشجارِها وقصورها، وخصّ هذه الصّورة من النّعيم لأنّها من أبرزِ مظاهر الحياة المترفة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ إنّ لله مطلق التّصرّف والإرادةِ في خلقه وفق سننٍ عادلةٍ لا تُحابي أحدًا ولا معقّب لحكمه؛ فيُعاقبُ عدلاً من عصاهُ ويُثيبُ تفضّلاً من أطاعهُ.

ولَمّا كان من أبرزِ أسباب الانقلاب عن الإيمان ضعف الثّقة في الله قال: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ تقدير الكلام: لا تظنوا أن الله غير ناصرٍ لرسوله صلى الله عليه وسلم ؛ بل هو ناصر له في الدنيا والآخرة لا محالة، ومن توهّم بأنّ الله لا ينصرُ رسوله ولا يعزّه في الدّنيا قبل الآخرة؛ و على هذا فضميرُ "ينصرُه" عائدٌ إلى الرّسُول ﷺ، وهذا قول الجمهور، وقيل:الآية تتحدث عن قوم يظنون أن الله لا ينصرهم في الدنيا ولا في الآخرة إن بقوا على الإسلام، فأما ظنهم انتفاء النصر في الدنيا فلأنهم قد أيسوا من النصر استبطاء، وأما في الآخرة فلأنهم لا يؤمنون بالبعث، وحاصلُ معنى الآية: فليستفرغ جهده في الكيدِ له فلن يردَّ نصر الله ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ فليرفع ذلك الإنسان نفسه بحبلٍ إلى الأعلى ثمّ ليقطعه من مكان تعلّقه ليهوي منتحرًا؛ ومفعول "يقطع" محذوفٌ لوجود ما يدلُّ عليه، وسُكّنت لامُ الأمرِ فيه لوقوعها وسط الكلام على أنَّ كسرها بعد "ثمَّ" جائزٌ وهو ما قرأَ به ورش، أو القطع عائدٌ إلى عضوه الذي علّق به نفسه أي فليقطع عنقه بالشنق، والسّبب الحبل لأنّه يصلُ بين جهتين، والأمرُ للتّعجيز تضمّن تهكّمًا بالشاكّ في نصرةِ الله بأنّه لا جدوى ممّا يفعلُه ولو وصل به الأمر إلى إهلاك نفسه ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ فليتأمّل في عاقبة أمرِه هل ستشفي غيظ قلبه الذي سبّب له الإعراض عن الإيمان، والاستفهامُ إنكاريٌّ فكيدُه لا يُطفئ غيظه بحالٍ، وكيدُه أراد به انتحارِه، وغيظه اشتعال قلبه غمّا بالدّينِ الذي وضعه -في نظرِه- في حالِ الضّيق.

وبعد تفصيلٍ دقيقٍ في أحوالِ النّاس تجاهَ دعوة الإسلام كان من المناسب أن ينوّهَ بعظمةِ القرآنِ في البيانِ عامّةً ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ومثل بياننا لما سبق من الحجج في شأن البعث وأحوال النّاس مع الإيمان أنزلنا آيات القرآن واضحاتٍ جليّة المعاني والسّنن ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ وسبب إنزالنا للآياتِ الواضحاتِ أنّ الله يهدي بها مَن شاء ممّن وجد منه الإقبال إلى الهداية؛ وحذَف لام التّعليل الجارّة مع "أنّ" فلم يقل:"لِأنّ" وذلك واردٌ مطّردٌ.

وبعد عرض أحوال النّاس مع الدّعوة يردُ تساؤلٌ عن الملل المشهورةِ آنذاك ماذا عن حالها وكلٌّ منها يدّعي لنفسه الصّواب؟ فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنّ المؤمنين بالله من أمّة محمّدٍ ﷺ وغيرِهم

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود أتباعُ موسى عليه السلام؛ سمّوا بذلك نسبةً إلى يهوذا ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ وهم الذي صَبَؤوا من دين قومهم وبقوا على فطرةِ نفوسهم لم يتبعُوا دينًا معيّنًا؛ أو هم ينتقلُون من دينٍ إلى آخر لم يستقرُّوا على دينٍ، وهذا أقرب تفسيرٍ لهذه الطّائفة وثمّة تفسيراتٌ أخرى تقدمت الإشارة إليها في سورة البقرة ﴿وَالنَّصَارَى﴾ وهم أتباعُ عيسى عليه السلام القائلون: نحنُ أنصارُ الله، واصطلاحُ القرآن اختار لهم هذا الاسم ولم ينسبهم إلى المسيح ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ وهم عبدة النّارِ؛ على أشهرِ الآراء ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والذين اتّخذوا لله شركاء من خلقه في كلّ عهدٍ سبق أو سيأتي؛ ولعلّه أراد هنا إشراكًا محضًا وإلاَّ فاليهود والنّصارى والمجوس أيضًا أشركُوا، والآية شاملةٌ لجميعِ أصنافِ الملل باعتبارِ أنّ من لم تذكره الآية دخل في هذا القسم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إنّ الله يحكم بينهم بالحقّ يوم القيامة والفصل سائلاً كلاًّ منهم عن الطّريق الذي اختاره، فيثيبُ أهل الإيمان بالجنّةِ ويجازي من خالف سبيل الله بالنّارِ، والتّنويه بهذا الفصل الأخرويّ بعد ذكر الملل المختلفة تربيةٌ على تفويض فصل الاختلاف لله وتسليةٌ لقلب من تحسّر قلبه لتمزّق وحدة الأمم البشريّة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ إنّ الله تعالى مطّلعٌ على كلّ شيءٍ من أعمالهم؛ فَفَصْلُه بذلك قطعٌ وجزاؤه عدل.

٣٠. خضوع جميع الموجودات لله دونَ كثيرٍ من النّاس

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾.

ولَمّا سبق الحديث عن ذمّ مَن يدعو مِن دون الله ما لا يضرّه ولا ينفعه وجّه هنا كلَّ بصيرٍ إلى أنّ المستحقّ للعبادة والدّعاء من خضعت لعظمته كلّ المخلوقات ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ألم تعلم أيّها المتأمّل البصير أنّ جميع من في السّموات من المخلوقاتِ كالملائكة وجميع من في الأرض كالأحياء المختلفة خاضعٌ لله مذعنٌ له، والاستفهامُ إنكارٌ لمن لم يعلم بخضوعِ من شأنه أن يخضع لله، والسّجود هنا محمولٌ على وجهيه الحقيقيّ والمجازيّ ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ وهذه الأصنافُ كلّها خاضعةٌ لأمره كذلك، خصّها بالذّكر

بعد العموم لأنّها عُبدت من دون الله فكان بيانُ كونها خاضعةً لله إيماء بأنّها لم ترض إلا بأن تكون عابدةً لله لا معبودة، وفي الآية نشرٌ بديعٌ فالثّلاثة الأولى"الشمس والقمر والنجوم" قابلت السّموات والثّلاثة الباقية" الجبال والشجر والدواب" قابلت الأرض ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ وطائفةٌ كثيرةُ العدد مِن النّاسِ ممّن يخضعُ لله تعالى، والكثرةُ هنا محمولةٌ على بعض أحوالهم كحالِ الضّرّ؛ فإنّه لا يخلو أن يكون في البشر خضوعٌ إمّا طوعًا وإمّا إكراها ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وطائفةٌ كثيرةٌ وجب عليها العذاب لاستنكافها من الخضوع المطلق لله وإن خضعت أحيانًا، وهذه الجملة اعتراضية لبيانِ أنّ البشر اختلفُوا عن المخلُوقات السّابقة بكونهم لم يجعلُوا لله السّجود المحض، وعن هذا الصّنف قال: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ومن يهنه الله بالخزي الدّنيويّ أو بالعذابِ الأخرويّ فليس له من دون الله أحدٌ يكرمه، وبين "يُهن" و"مكرم" طباقٌ وهو من محسّنات الكلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ تأكيدٌ لقوله السّابق: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وخالف بين الفعلينِ تفننًّا، وهنا موضعٌ من مواضع السّجدات المتّفق عليه؛ أمرنا بالسّجودِ فيه اقتداء بالمخلوقات التي كان ديدنُها الخضوع لله لنفوز بمكرمة الثّناء الذي حظِيَت به.

٣١. مصيرُ المكابرين وجزاءُ الصّالحين

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ(٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾.

وبعد محطّاتٍ من جدال أهل الكفر والارتداد يحكي عاقبة كلٍّ من الأشقياء والسّعداء للاعتبارِ بها مناسبةً لتقسيمِ النّاسِ إلى كثرةٍ خاضعةٍ وكثرةٍ حقَّ عليها العذاب ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ هذان فريقان اختلفُوا في دين الله فعبدهُ الصّالحون إخلاصًا ونصرُوا دينه وجحد مقامه الكفّار إنكارًا وحاربُوا شريعته؛ فالآية على تقديرِ مضافٍ أي اختصموا في دين ربّهم، والافتتاح بالإشارة"هذان" شدٌّ للانتباه إلى عاقبتهم الجليّةِ وكأنّها كالشّيء المشاهد الذي يُشار إليه، وسمّى فريق الصّلحاء خصمًا على

سبيل المشاكلة ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ وفريقُ الكفّار قد كانت عاقبته عذاب النّارِ الدّائم الفظيع؛ والذي من أحواله تفصيلُ ثيابٍ لأصحابه بمقاس أجسامهم وبما يناسبُ أعضاءهم، وذَكَرَ التّقطيع مجازًا لأنّه مطيّةٌ إلى التّفصيل، وشدّد الفعل"قطّعت" للمبالغة، وجاء بالفعل ماضيًا لأنّ موعودات الله ثابتةٌ وكأنّها قد وقعت، فالآية على ظاهرها، وفسّرها بعض المفسرين على سبيل الاستعارة فالنّار تلتفُّ بهم التفاف الثّوب بصاحبه، ومن أحوال العذاب أيضًا: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ أي أنّ الماء السّاخن جدًّا يُراق على رؤوسهم، و"الحميم" الماء الذي اشتدّ غليانه وشمل أيضًا ما اشتدّت حرارتُه من عموم السّوائل والمواد المذابة ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ وذلك الحميم يُذِيب ما في بطونهم من الأمعاء والأجهزة الدّقيقة حتّى تنصهر وتختلط أجزاء أجسادهم ببعضها، كما تشوى به جلودهم حتّى تتمزّق، و"يصهرُ" من الصّهر وهو الإذابة، وهو متحقّق بالصّب فوق الرّؤوس حتّى يخرقها فيُفضي إلى الباطن؛ أو بإرغامهم على شربه قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمّد: ١٥] والصّبُ من فوقُ إيماءٌ إلى أنّه شمل أجسادهم من أعلى إلى أسفل؛ كما أنّ ذكر البطون مع الجلود تنبيه إلى أنّ العذاب يلحقُ الباطن ويمسُّ الظّاهر-سلّم الله أجسادنا من النّار- ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ وتسلّطُ عليهم مقاطع من حديدٍ تضربُ به زبانيةُ النّارِ أجسادهم، و"المقامع" جمعُ مقمعة؛ وهي سياطٌ وآلاتٌ للعقاب؛ سمّيت بذلك لأنّها تقمعُ غلوَّ الفاجر الذي كان يجادل ويُخاصم بالباطل ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ كلّما تمنّوا الخروج من النّارِ بسبب شدّةِ الضّيقِ و انحسار النّفس وجدُوا السّبل منقطعةً دونهم فأعيدوا إلى أصلِ الجحيم بالمقامع، والغمُّ ناشئٌ عن نفوسهم كما نشأَ عن الانحباس في النّار يُقال: غمّهُ إذا غطّاهُ، والآيةُ صريحةٌ في نفيِ خروجِ الدّاخل إلى النّارِ، و"كلّما" أفادت أنّهم لا يزالون يتمنّون ذلك ولا يجدونه؛ وفي ذلك عذابٌ نفسيٌّ شديدٌ، وإذا أعيدُوا يُقال لهم احتقارًا وتهكّمًا وهم يعلمون أنّهم سيبقون في العذاب: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ تمتّعُوا بذوقِ مزيدٍ من عذابِ الإحراق الدّائم الذي كنتم تنكرونه، والحريق النّار العظيمة التي تأتي على الأشياء.

وأمّا فريقُ الصُّلاح فقال عن عاقبتهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تأكيدٌ للآيةِ السّابقةِ، واستعمل أداةَ التّوكيد في الموضعين إثباتًا لحقيقة جزائهم

الذي يبدو بعد عرض عذابِ النّارِ عجيب الحصول للمفارقة الشّاسعة، ونسب الإدخال في الجنّة لله بإظهارِ اسمه الأعظم تشريفًا للدّاخلين، ومهّد بالآية ليُتمّها بقوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ يُلبَسون في الجنّاتِ من شتّى الزّينة؛ ومنها الأساورُ المصاغة من الذّهب واللّآلئ النّفيسة، والتّحليةُ من بعضهم لبعضٍ أو من الملائكةِ وعلى كلٍّ هي مظهرٌ للتّشريفِ، والأساورُ جمعُ كثرة لـ"سوار" وأسْوِرَة جمع قلة، واستعمل صيغة منتهى الجموع فيها لقصدِ الكثرةِ، وبدأ بالتّحلية مع أنّها لاحقةٌ لأنّها أظهر في الامتنان ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وألبستُهم في الجنّةِ من مادّةِ الحريرِ، وجاء بالجملة اسميّةً مبالغةً في تحقيق الموعود، ولا شكّ أنّ زينة الرّجال بالأساورِ ولبس الحرير مع كونها حلالاً في الجنة ونعيمًا يختلفُ عن طبيعة ما تلبسه أزواجُهم، وتلك المواد تتفقُ مع مواد الدّنيا في الاسم أمّا طبيعتُها فشيءٌ آخر لا يعلم حقيقته إلاّ الله ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وقد سدّدهم الله في الجنّةِ إلى جميلِ القولِ مع بعضهم ومع الله ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] أو هداهم إلى مصدر القول الطيب ليسمعُوه؛ ومن ذلك سلام الملائكة لهم وتهنئتُهم، أو الطّيب من القول كلمة التّوحيد وكلّ قولٍ صالحٍ في الدّنيا ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ وهداهم الله في الجنّةِ إلى طريقِ الخيرِ المحمود فحياتُهم فيها كلّها خيرٌ؛ والحميدُ اسمٌ لله، وفي هذا مقابلةٌ لما قيل في الأشقياء: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصّافّات: ٢٣]، أو ذلك في الدّنيا بمعنى: نالُوا ذلك الجزاء بما وفقّهم الله إليه من سلوك طريقِ الله المحمود في الدنيا.

٣٢. حرمةُ البيت العتيق وشأنُ إبراهيم عليه السلام في تأسيسه والدّعوةِ إليه

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾.

ولَمّا ذكر عذاب الذين كفرُوا أشارَ إلى بعضِ ما كانوا يعملُونه فاستحقُّوا به ذلك العذاب ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إنّ الذين كفرُوا بالله تعالى ورسالته وكانوا يضلّون النّاس عن دين الله القويم، وأورد فعل "يصدُّون" مضارعًا بعد ذكرِهم بالاسم الموصولِ تلويحًا بأنّ كفرهم أفضى بهم إلى إضلال غيرِهم واستقرّ ذلك ديدنًا فيهم ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ ويمنعون النّاس من دخول المسجد الحرام وهو الكعبةُ وما جاورها بمكّة المكرّمة؛ المسجد الذي جعله الله مظلّةً يجتمعُ فيه المسلمون من شتّى أقطارِ العالم، والنّاس لفظٌ عامٌّ أراد به خصوص المسلمين، ومن صورِ هذا الصدّ ما حدث عام الحديبيّة، ويُحتملُ أراد بالمسجد مكّةَ وذكرها بأعظم أماكنها، وهو من سبيلِ الله وخصّهُ بالذّكر اهتمامًا بشأنه ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ لا فرقَ في المسجد الحرام بين مقيمٍ قريبٍ منه وو افدٍ من أماكن بعيدةٍ، ذكر المقيم بالإشارةِ إلى اعتكافه الذي هو من لوازم إقامته، والبادي المقبلُ من البوادي؛ ذكرهُ تمثيلا ليعرّض بأنّه لا مزيّة للمقيم على غيرِه ليستأثر بالمسجدِ، وخبر "إنّ" السّالفة محذوفٌ أفادهُ السّياق وتقديرُه: لهم عذابٌ أليمٌ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ ومن يعزم على ميلٍ عن الصّوابِ فيهِ بظلمٍ لنفسه أو غيرِه أو للبيتِ نفسه، والإلحاد لغةً الميل، وباء "بإلحاد" للتّأكيد، وأمّا باء "بظلمٍ" فهي للملابسة، وتقديرُ الكلام: ومن يرد فيه ميلاً عن الحقّ متلبّسًا بظلمٍ ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ نكافئه بعذابٍ لا يقوى على تحمّله، وفي الآية ما تضمّن تشريفًا للبيتِ الحرام وتقديسًا له إذ حذّر من بيّت نيّةَ سوءٍ فيه بعذابٍ موجعٍ ينتظرُه؛ وقصّةُ أصحابِ الفيل من شواهد ذلك.

ولَمّا ذكر المسجد الحرام ومكانته علّل سبب استحقاقه لذلك الشّرف بالتّفصيل في نشأته التّاريخيّة ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ واذكر أيّها الرّسُول ﷺ أنّنا هيّأنا لنبيّنا إبراهيم عليه السلام موضع الكعبة المشرّفةِ وأرشدناهُ إلى بنائها فيه، و"بوّأنا" من الإباءة وهي الإنزال والتّهيئةُ، واللاّم في "لإبراهيم" للعلّةِ التي تضمّنت نوعًا من العناية والتّكرّم، وذِكر "مكان" تنبيهٌ بطريق الإيجاز إلى مشروع بنائه وإلاّ كان اللّفظ حشوًا. قائلين له: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ لا تتّخذ مع الله شريكًا من مخلوقاته مهما كان، بدأ بهذا التّوجيه ليُعلّمنا أنّ المعالم الدّينيّة لا تُقام إلاّ لنصرة التّوحيد الخالص لا كما عرف في عموم الأضرحة والمقامات؛ وليُعلِم بأنّ الكعبة بنيت لهذا الغرض لتبقى شاهدًا على منهجِ

التّوحيد الإبراهيميّ مدى الدّهوروإن مات مؤسّسُها وليست مجرّد حجرٍيطافُ حوله ويتبرّكُ به ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ووفّر عند بيتي فضاءً طاهرًا من الأوثان لعبادي الذين يأتون للطّواف وأداء الصّلاة، والأمرُ بالتّطهير محمولٌ على إنشاء الطّهارةِ أي ابتداؤها و الاستمرار في تعهّدها بعد ذلك؛ ولسكّان الحرم إلى قيام السّاعة الشّرف بإتمام مهمّة إبراهيم عليه السلام في تهيئة الحرم لضيوف الله، وأضاف الله تعالى البيت إلى نفسه للتّشريف، وذكر الصّلاة بأبرزِ أعمالها" الركوع والسجود" مجازًا؛ ولم يعطف في "الرّكّع السّجود" لجامع الانحناء فيهما، وهذه الأغراض هي الهدف الأسمى للحجّ وإن أبيحت شتّى المنافع كما سيأتي. فإذا فرغت من تهيئةِ البيتِ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ فنادِ في النّاسِ ليقصدُوا البيت الحرام، واستعمل لفظ الأذان دون غيرِه تقريرًا بأنّه عليه السلام رفع صوته بالنّداء، وأذانُه هذا سببٌ تشريفيٌّ للافتتاح الرّسميّ لأوّلِ وفود النّاسِ إلى الحجّ إلى يومِ النّاسِ هذا؛ وهو في حقيقته نداءٌ من الله لأنّه الآمر، قال بعضُ النّبهاءِ السّرُّ في مشروعيّةِ التّلبيةِ في الحجّ تجديدُ العهدِ باستجابة هذا النّداء ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ نادِهم وسيأتُونكَ رجالاً، والإتيانُ إلى البيتِ و إنّما جعله إليهِ مبالغةً في تبشيرِه بالاستجابةِ، و"رجالاً" هنا جمعُ راجلٍ وهو السّائرُ على قدميه، وبدأَ بالرّاجلين تلويحًا بحجّهم لاستجابة النّداء حتّى إنّ انعدام الدّابةِ لم يعجزهم ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أو راكبين على كلّ الجمال التي تيسّرت لهم، والواو هنا للتّقسيم بمعنى "أو"، والضّامر البعير والدّابة الخفيفة بالهزال أو بطبيعتها التي تُسعفها على قطع المسافات ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يَقْدُمون من كلّ ناحيةٍ ومن كلّ النّقاطِ القريبةِ والبعيدةِ، وردَّ ضمير"يأتينَ" إلى الدّواب إكرامًا لها إذ حملت عبيد الله إلى بيته؛ وشملت اليوم كلّ مركبٍ سيّارٍأو بحّارٍأو طيّارٍ؛ وقيل الضّميرللجماعات الو افدة، و"كلّ" السّابقة وهذهِ للمبالغةِ في تصويرِ استجابةِ النّاس للنّداء، والفجّ الطّريق ويجمعُ على فجاج؛ وأصله الطّريق بين جبلين فشاع استعمالُه لكل طريق؛ وهو اختيارٌدقيقٌ لأنّ أكثر الطّرق المؤدّية إلى مكّة بين الجبال، وفي استعمالِ لفظِ العمقِ إعجازٌقرآنيٌّ ناسب كرويّةَ الأرض أكثر ممّا لو قال: بعيدٍ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ ادعُهم إلى الحجّ ليفوزوا بمنافع دينيّةٍ كثوابِ الصّلاةِ والطّواف عند المسجد الحرام وكالملتقى العالميّ للتّواصل في الله؛ ومنافع مادّية كالتّبادلات التّجاريّة؛ واستبعد القطب أنّها منافع دنيويّة؛ قال: "لم تقصد بالذّات والمقصود بالذّات الأخرويّة... لأنّه لا يصحُّ النّداء لأجلها ولا يمدحُ الآتي

لأجلها"[٦]، وتنكيرُ "منافع" للتّكثيروالتّعظيم ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ ويتفرّغُوا للعبادةِ في أيّامٍ معلومةِ العددِ هي العشرُ الأولى من ذي الحجّة، أو هي العاشرُ من ذي الحجّةِ وثلاثةٌ بعدهُ، وذكر اسم الله عليها أي الأنعام إشارةٌ إلى الذّبح ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ شاكرين الله على ما أكرمهم به من صنوف الأنعام التي حملتهم على ظهورِها وأطعمتهم من لحومها وألبانها واستظلُّوا من حرِّ الشّمس بالخيم المصنوعة من أشعارها وأوبارها والتي يستخفُّون حملها، وهو هديٌ أُرشدُوا إليه مخالفةً للمشركين الذين يذبحون للأصنام ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فاستمتعُوا بالأكلِ منها ولا تنسوا أن تطعموا البؤساء الفقراء حولكم، والبائس الذي أصابه بؤسٌ أضعفه فصار فقيرًا، والصّفة الأولى أُوردت لترقيق القلوب كي ترغب في الإطعام وهي بيانٌ للثّانية"الفقر" التي صارت كاللّقب لشيوعها، والأمرُ بالأكلِ للإباحةِ وبالإطعامِ للنّدبِ؛ وذكر البائس الفقير لأنّه أولى وغيرُه من الميسورينَ معنيٌّ كذلك.

وليتمّ الحجّاج بعد الذّبح مناسكهم بالإحلال من الإحرام ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ ثمّ ليتخلّصوا ممّا علقَ بهم من درنٍ بسببِ جهد المناسك وليقلّموا أظفارهم وليحلقُوا شعورهم ويقصُّوا شواربهم، وأصلُ "يقضوا" هنا يقطعُوا ضمّنه معنى التّخلّص من الشّيء، والتّفثُ الوسخُ، وذهب مفسّرُون منهم ابن عاشُور إلى أنّ التّفث هنا أعمال الحجّ؛ ولعلّ الجمع بين الرّأيين أنّها أعمال الحجّ ذكرت بمظهرٍ من أبرزِ مظاهرِها الختامية وهو إلقاء التفث ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ وليحرصوا على الوفاء بما بين أيديهم من النّذورِ التي قدّموها لله، والحكم عامٌّ ضمّنه هذا الموضع لأنّ الحجّ مظنّة النّذرِ بالصّدقة والصّلاةِ وغيرِها؛ وفي عصرنا قلّما تتيسّرُ إجازةُ السّفر إليه حتّى صار البعض ينذر لله طاعة إن تيسّر له ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ولينهوا مناسكهم بالطّوافِ حول البيتِ العتيق وهو "طواف الإفاضة" الذي به تمام التّحلّل؛ وقيل: هو طوافُ الوداع، وسمّى البيت بالعتيق لأنّه أعتقه وحفظه من تسلّطِ الظّالمين كما سبقت الآية؛ أو هو بمعنى القديم فهو أوّل بيتٍ وضع للنّاس.

---

[6] محمّد بن يوسف أطفيّش، **تيسير التّفسير**، ج٩، ص٣٩١.

٣٣. الدّعوةُ إلى التّوحيد وتعظيمِ شعائرِ الله والامتنانُ بحلّيّةِ الأنعام

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ اسم الإشارةِ هنا استجماعٌ لفحوى ما سبقَ ذكرُه تمهيدًا للانتقال إلى بناءٍ جديدٍ في الكلام، وأورد الإشارة للبعيد كنايةً عن تعظيم ما قبله والشّائع استعمال (هذا)، و"ذلك" مبتدأٌ يقدّر خبرُه بنحو: بيانٌ أو ذكرٌ ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ والذي يعظّمُ شأن شعائرِ الله فتعظيمُه يدّخره الله له فضلاً عظيمًا يجده عنده، وأضاف ضميره إلى اسمِ الرّبّ تشريفًا، و"حرُمات الله" حدوده في الإتيانِ بالواجبات والكفِّ عن المنهياتِ؛ ويجوزُ تفسيرُها بأماكنِ الحجّ المقدّسة وشعائرِه المباركة ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾ وجعل الله لكم صنوف الأنعامِ من إبلٍ وبقرٍ وضأنٍ ومعزٍ في حلّيّةٍ تامّة ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ولم يُحرّم عليكم إلاّ ما بيّن لكم حرمته في القرآن؛ كالدّم والميتة وما ذبح لغير الله، وجاء فعل "يُتلى" مضارعًا إشارةً إلى الأحكامِ التي خلّدها الله في القرآنِ لينالها حظُّ الاستذكارِ، وفي هذا تعريضٌ بإبطال ما حرّمه آباؤُهم على أنفسهم من البحيرة ونحوها ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ فابتعدُوا عمّا حرّم عليكم من الأصنامِ والذّبحِ لها؛ فالتّقرّب إليها رجسٌ معنويٌّ يدنّس القلوب؛ والذّبح لها رجسٌ ماديٌّ بالذّبائح المحرّمة، و"الرّجس" الخبث، و"من" للبيانِ؛ وعدّ الأوثان فرعًا عن أقسام الرّجس مبالغةً في تشنيعها، وأمر باجتنابها ليشمل تحريم التّقرّبِ إليها بكلِّ

وجوهه كما جاء في شأنِ الخمر ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ و اتركُوا نقل الأقوال الكاذبة المفسدة بينكم؛ فالحجُّ محطّةٌ لتربيةِ النّفوس على الفضائل، والزّور لغةً نوعٌ من الميل سمّي به الكذب لأنّه ميلٌ عن الحقّ، ومن الزور أيضًا تسمية الأوثان آلهةً ونحوها من الافتراء على الله الذي شاعَ قبل الإسلام، فعَنْ خريم بن فاتك الأسدي، قال: صلّى النّبي ﷺ الصبح، فلمَّا انصرف قام قائما، فقال: "عَدِلَت شهادة الزّور بالإشراكِ بالله" ثلاث مرات، ثم تلا هذه الآية،[7] وجدّد الأمر بالاجتناب إطنابًا ليهتمَّ بشأنِ كلٍّ من النّهيين على حدةٍ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ اجتنبُوا ذلك لتكونوا مثل أبيكم إبراهيم عليه السلام على الحنيفيّة السّمحاء مائلينَ عن كلِّ صورِ الشّرك؛ كالرّياء بالقربات، وأكّد الحنيفيّة بنفيِ الإشراك حثًّا عليها ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ والذي يجعلُ لله شريكًا فحالُه حال الذي وقع من السّماءِ إلى الأرضِ، وفي هذا تمثيلٌ لانقلاب الحال الكلّيّ من سماءِ الإيمانِ إلى أسفل سافلين بالشّرك، وأظهر اسم الجلالة بيانًا لفظاعة شركه ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ فتلقّفته الطّيرُ بمناقيرها تأكله فلا يكادُ يبقَى له أثرٌ أو ترمي به الرّيحُ العنيفةُ في هاويةٍ بعيدةٍ لا يلحقه فيها بصرٌ ولا يسمع له منها خبرٌ، والفعلانِ جاءا بالمضارع استحضارًا لتلك الحالِ المرعبة، وتخطّفُ الطّيرِ رمزٌ للضّلالاتِ الكثيرةِ التي تعتريه؛ وتسلّط الرّيح رمزٌ للشّيطان الذي يبعدهُ كلّ البعد عن الحقّ؛ والصّورتان تخييرٌ في نتيجة التّشبيه لكنّ المؤدّى واحدٌ وهو تعسّرُ العودة، ويُمكنُ حمل التّمثيل على أنّ المشرك تنحطُّ درجته وتضيقُ عنه سعة الدّنيا بشركه ﴿ذَلِكَ﴾ ذلك الأكل من الأنعام واجتناب قول الزّورِ والابتعاد عن الشّرك ممّا شرّعه الله لكم فالتزموهُ ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ والذي يقدّرُ مكانة الشّعائرِ الإلهيّة وبالأخصّ هنا أعمال الحجّ من طوافٍ وسعيٍ ووقوفٍ بعرفةَ و إفاضةٍ وذبحٍ وغيرِ ذلك، وقيل: الشّعائرُ هنا الهدي خصوصًا ليناسبَ السّياق الآتي، وهي جمعُ شعيرةٍ أي مَعلم؛ لأنّها تُعلم بما شرّعه الله ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فإقامة الشّعائر أمارةٌ على امتلاء قلب المقيم لها بالتّقوى وكونه من الذين يخشون الله، وأضاف القلوب إلى التّقوى لأنّها محلّها ولأنّ التّعظيم ينشأُ عنها، والآية ذكرت التّعظيم لكونه مظنّة الإخلاص في الأداء وليس مجرّدُ الأعمال علامةً للتّقوى ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أحلّ لكم في الأنعام الانتفاع بما تلد لكم وبركوبها وإعارتها وبألبانها

---

[7] رواهُ ابن ماجة، ك: الأحكام، ب: شهادة الزّور، ر: ٢٣٧٢، (٣/٤٥٥).

وأصوافها وغيرِذلك إلى أجلِ ذبحها والتّقرّبِ بها، وفي هذا التّفصيلِ الدّقيق تطهيرٌلساحةِ المعتقداتِ التي رسخت في الأذهانِ منذ العصر الجاهليّ؛ فعن أبي هريرة: أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال: (اركبها) فقال: "يا رسول الله إنّها بدنة"، قال: (اركبها) قال: "إنّها بدنة"، قال: (اركبها ويلك) في الثّانية أو الثّالثة[8] ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ثمّ نهايةُ المطافِ بها التّقرّب إلى الله بذبحها في الحرم بمكّة أو غيره من المواضع، والمحِلُّ مصدرٌميميٌّ من حلَّ يحلُّ أي بلغَت موضعًا انتهت إليه وهو كنايةٌ عن ذبحها، وخصَّ البيت بالذّكرِ لأنّه محورُشعيرةِ الحجِّ ومنطلقها وكلٌّ متفرّعٍ عنه تابعٌ له؛ كقوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة ٩٥]، وفي نحوِ هذه الفواصل سجعٌ رقيقٌ رائقٌ.

وفي خضمِّ الحديثِ عن الحجِّ الأكبرووحدةِ تعاليمه ومظاهره؛ يُنبّه إلى أنّ تلك السّنة كانت جاريةً في الأمم السّابقة ردًّا على المشركين الذين عدّدوا الآلهة ونوّعوا القربات والمناسك ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ وكلّ أمّة من الأمم السّابقة قد شرّعنا لها تعاليم في ذبحِ الأضاحي أشبه بما شُرّع لكم؛ والمنسك اسمُ مكانٍ ميميٌّ أي موضع النّسك؛ أومصدرٌميميٌّ فيكون بمعنى ذاتِ النّسك، وأرادَ بالنّسك عموم العبادةِ أو الذّبح لله على وجه الخصوص ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ لأجلِ أن يذكرُوا اسم الله عليها ويذبحُوها على شريعةِ الله شاكرين الله على ما رزقهم منها، أو "على" بمعنى لام التّعليل أي: لأجلِ ما رزقهم، والمراد أن يذكرُوا عليها اسم مَن رزقهم إيّاها لا اسم صنمٍ أووليٍّ لا يرزق، وذَكربهيميّة الأنعام تعليلاً لتسخيرها للذّبح ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ فمعبودكم أيّها النّاس واحدٌ وهو المتفرّدُ بالرّزقِ، فلعظمته وحدهُ أذعنوا ولا تذعنوا لمن لا يملك لكم رزقًا، ورتّب الإسلام على الوحدانيّة لأنّه نتيجتها؛ وذِكْرالوحدانيّةُ بعد ذِكْروحدة المنسك لأنّ ذلك من مقتضياتها ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وقدّم أيّها الرّسُول ﷺ بشارةً بحسنِ العاقبةِ وجميلِ الثّوابِ لمن أذعن لله مستجيبًا لأمرِه، والمخبتون جمعُ مخبتٍ وهو الخاضع المتذلّل لله؛ مأخوذٌ من خبتِ الأرض وهو ما اطمأنَّ منها، وزاد وصفهم بأربع صفات كلّها من مظاهر التّواضع فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين إذا سمعُوا ما يذكّرُهم بالله رقّت قلوبهم لعظمته وخافت من مقامه فبادرُوا إلى تلبية أمره، وحين كانت طاعةُ الله محلَّ صبرٍعلى أعمالِها وعلى مخالطةِ النّاسِ بسببِها قال: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾

---

[8] رواهُ الرّبيع، ك: الحج ، ب: في الهدي والجزاء والفدية، ر: ٤٢٩، (١٧٤/٢).

والصّابرين على ما يجدُونه من عناءٍ ومشقّةٍ من أثرِ العبادةِ كمناسك الحجّ؛ وهذا أنسبُ بالحجّ ويُحتملُ أنّه ثناءٌ عامٌّ على صبرِهم ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ والمواظبين على أداءِ الصّلواتِ فرضًا ونفلاً حسب أحوالها، وذكر الصّلاة بعد الصّبر لأنّها محطّةٌ لراحةِ النّفوس من متاعب الحياة، والتّنبيهُ على إقامتها في سياقِ الحجّ لأنّ طول السّفر ومشقّته مظنّة الإخلال بها ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ومن صنوفِ ما رزقهم الله من مالٍ وعلمٍ و أفكارٍ ينفقون في وجوهِ الخير، وقدّم الجارَّ والمجرور"ومما رزقناهم" على متعلّقه"ينفقون" للفاصلة وللتّنويه بأنّ ما أنفقُوه هو من رزق الله، والحجُّ كذلك محطّةٌ للاجتهاد في الإنفاق على العيالِ قبل السّفر وعلى النّفس وذوي الحاجة خلال الموسم.

ويعودُ إلى التّفصيل في شأنِ الأضاحي فيقُول: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ والإبل التي تقدّم للذّبحِ قد جعلها الله لكم من مظاهرِ إقامة شريعته، و"البدن" جمعُ بدنةٍ؛ وهي الإبل السّمينة سمّيت بذلك إشارةً إلى ضخامة أبدانها فهي أفضل ما يُهدى، وقدّمها على عاملها"جعلناها" اهتمامًا بشأنها.[9] ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ لكم بعد ذبحها منافع عظيمةٌ من ثوابٍ وأكلٍ وإطعامٍ ومن عموم الاستفادة منها فارغبُوا في التّقرّب بها، وفي "لكم" بعد تكرّرها وذكرِ الجعلِ إمعانٌ في الامتنان، وتقديمُ "فيها" للاهتمام بما تضمّنته من فوائد ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ فابدؤُوا بذكرِ اسم الله عليها وهي قائمةٌ مصطفّةٌ، و"صوّافّ" جمع صافّة أي قائمةٌ مع غيرِها منشئةً صفًّا؛ وفي هذا إشارةٌ إلى النّحرِ الجماعيّ للإبلِ الذي عرف في مواسم الحجّ لكثرةِ أعدادِ المهدين ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ فإذا سقطت جثّتها أرضًا وثبتت بلا تحرّكٍ جنبٍ منها؛ وهذا كنايةٌ عن موتها، و"الجُنوب" جمع جنبٍ، والمراد من تحديد هذه اللّحظةِ الإسراع إلى الانتفاع منها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ فخذوا منها لأكلكم ولإطعام القانع؛ وهو المحتاجُ الذي غلبته القناعة فهو لا يسأل أو يسألُ ويقنع بما يعطى له؛ وقيل اسمه مأخوذٌ من القُنوع الذي منه القناع شبّه به لحاله المستور، والمعترّ من الاعترار والتّعرّض؛ وهو الذي يتعرّضُ للنّاسِ فيُعطونهُ بالسّؤالِ أو بدونه، والأمرُ بالأكلِ للإباحةِ وبالإطعامِ للنّدب، وبينَ "القانع" و"المعتر" طباق ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كما رغّبناكم إلى التّقرّب والانتفاع

---

[9] في الحجِّ والعمرة كلُّ سبعة في بَدَنة، فقال ﷺ وعدَّ بعضُ البقرَ من البدن ا ستئنا سًا بحديث جابر بن عبد الله، قال: «ا شتركنا مع النبي رجل لجابر: أُي شتَرَك في البَدَنة ما يُ شتَرَك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلا من البُدْن». رواهُ م سلمٌ، ك: الحجّ، ب: الا شتراك في الهدي..، ر: .)صَوَافَّ(١٣١٨، (٢/٩٥٥)، غير أنّ العادة جرت بذبحِ البقر مضطجعًا وهو ما لا يستقيمُ مع قوله الآتي:

بها ذلّلناها لكم فلا يصعب عليكم سوقها ولا ذبحُها رجاء أن تشكرُوا الله على جزيل نعمه. والدّليلُ أنّها تسخيرٌ محضٌ لكم ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ لن يصل إلى الله شيءٌ من لحومها ولا قطرةٌ من دمائها، والنّيلُ الإصابة والحصول؛ وهو هنا مجازٌ عن اطّلاع الله على أعمالِهم المفضي إلى قبولها ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ولكن تبلغه خصلةُ التّقوى منكم، حيثُ تعظّمون الذي رزقكم بلا طلبٍ منكم وجمعكم على سنّةٍ واحدةٍ من الفرحِ بلا تخطيطٍ من أحدكم؛ فتلتفّون حول طاعته وتنأون عن معصيته ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ جدّدَ التّنويه بالتّسخير لأنّ أيّام النّحرِ والذّبح على تنوّعِ محطّاتها مظهرٌ في غايةِ البهجةِ يقتضي عظيم الشّكر؛ وليُمهّد لقوله: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ لتذكرُوا اسم الله الأعظم معظّمين مقامه فوقَ كلّ مقامٍ؛ في موقف الذّبح وغيرِه، لأجلِ ما أرشدكم إليه من عظيمِ السّننِ الدّينيّة ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ وبشّر أيّها الرّسُول ﷺ بالخيرِ الأخرويّ العظيم أهلَ الإحسان الذين يبادرُون إلى إطعامِ ذوي البُؤس والاحتياج في هذه المناسبة العظيمة؛ كما يجتهدُون في شتّى الطّاعات والقربات فيه كالتّكبير والزّيارة.

٣٤. مشروعيّةُ الدّفاع عنِ النّفسِ والوعدُ بالتّمكينِ في الأرضِ

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ(٣٨) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ(٤١)﴾.

لَمّا سلف ذكرُ صدِّ الكفّارِ عن سبيلِ الله والمسجِد الحرام نوّه الله هنا بأنّه يدافع عن المؤمنين ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إنّ الله يحمي أهل الإيمان بتأييده فلا يتمكّنُ الكفّارُ منهم ويمدُّهم بنصرِهِ فيدفعون به شرّهم، وأكّد الجملةَ تقويةً لموعودها في النّفوس؛ فالآية بشارةٌ وتثبيتٌ لقلوب أهلِ الإيمان بأنّ الله معهم، والمفاعلةُ للمبالغة أي دفعًا عظيمًا؛ وأصل الفعل "يدفعُ" وحذف المفعول لدلالة المقام عليه، وذكرهم بالإيمان بيانًا لسببِ ما استحقُّوا به تلك المزيّة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ إنّ الله لا يرضى عمّن يخون عهد ربّه ولا عمّن ينغمسُ في كفرانه، وأعاد التّأكيد وكرر لفظ

الجلالة ليجري الكلام مجرى المثل، والمراد: أنّه دافعٌ عن المؤمنين هؤلاء بوجه الخزي لأنّه لا يحبّهم، ويحتمل المعنى: فاصدقُوا معه وآمنُوا به يُحببكُم فيدافع عنكم، و أفادت "كلّ" أنّ عموم الخيانة والكُفر مذمومان، والمبالغةُ في الصّفتينِ باعتبارِ اكتسابِهما عن جرأةٍ عظيمةٍ وتحدٍّ لله، وكلاهما نتيجةٌ للأخرى فالخائنُ لعهدِ الله آيلٌ إلى الكُفرِ به والعكس يصحُّ.

وكان القتال بمكّةَ محظورًا حفاظًا على القلّةِ المشتّتة؛ وترسيخًا لمبدإ الدّعوةِ السّلميّةِ؛ وتوسعةً لفرصةِ تربيةِ النّفوس على أصولِ العقيدةِ والأخلاق؛[10] حتّى إذا هاجروا وقويت شوكتُهم ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ رخّص الله للمؤمنينَ الذين بدأَهم الكفّار بالقتالِ أن يقاتلُوهم بسببِ أنّهم كانُوا مظلومينَ، وفي الآيةِ محذوف تقديرُه: أُذن في القتال للذين، والباء في "بأنّهم" سببيّة، وجمهور المفسّرين على أنّ الآية أوّل ما نزل في مشروعيّة القتال، والنّكتةُ الظّاهرة فيها أنّها لم تهمل التّلويح إلى الحكمة منه وهو الدّفاع ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ وإنّ الله قادرٌ على نصرِهم على أيّة حالٍ انتهت قوّتُهم إليها؛ وقادرٌ على إذلالِ عدوّهم مهما بلغ تسلُّطه وعدوانُه؛ فبِيَده القدرةُ المطلقة، و أكّد الكلام تثبيتًا لدلالةِ الخبر في النّفوس، و"قديرٌ" مبالغةٌ في وصفه بالقدرة، وقيل: قادرٌ على نصرِهم ولو دون قتالٍ ولكن كلّفهم ابتلاءً، ولم يقل: على تنجيتهم؛ لتشمل البشارةُ التّنجية مع قهرِ العدوّ والتّمكين في الأرض. ثمَّ يصفُ الوجه الذي ظُلموا به ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الذينَ اضطرُّوا إلى هجرِ منازلهم ووطنِهم مكّةَ بغيرِ مبرّرٍ معقولٍ، ولَمّا كان التّضييقُ سببًا للإخراج اكتفى بذكرِ النّتيجة تلميحًا إلى شدّة الضّيق التي حقّقت تلك النّتيجة، وللمرءِ أحقّيّةٌ في الإقامة في بلدِ نشأتِه صوّرها بالنّكيرِ على إخراجه منهُ بغيرِ حقٍّ؛ وبالاستقصاءِ لأسبابِ إخراجه المعقولة عُلِم أنّ ما كان من خصوصيّاته غير داخلٍ فيها وهو ما تضمّنه الاستثناء ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أُخرِجوا لا لشيء سوى قولِهم: ربّنا واحدٌ هو الله الذي لا نعبُد غيرهُ؛ وقولهم هذا إشارة إلى إسلامهم، والاستثناءُ مستعملٌ بطريقِ الاستعارةِ التّهكّميةِ،لأن مانقموه عليهم خصلة حميدة لا سيئة، فكيف تكون سبب الإخراج؟!! كما أنّه تأكيدٌ

---

[10] يقول القطب: "وقد نهي عنه في نيّفٍ و سبعين آيةً في دعوى من يقول: كلُّ أمرٍ بالصّبرِ نهيٌ عن القتال". ينظر: **تيسير التّفسير**، ج٩، ص٤٠٤.

لمدحِ المخرجينَ بما يُشبه ذمّهم وهو تجرُّؤهم على حقوق الغيرِ بالنّطقِ بكلمة التّوحيد، والآية تنبيهٌ على أنّ اختلاف المعتقد لا ينبغي أن يحمل المجتمعات الإنسانيّة على المنازعات الإقليميّة.

ثمَّ يعلّل مشروعيّة ذلكم القتال ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ ولولا سنّهُ الله في دفعِ ظلمِ النّاسِ المبطلينَ بغيرِهم من المجاهدينَ في سبيلِ الله في كلِّ زمنٍ، أي لو سكتَ الحقُّ لسَيّلِ الباطلِ الجارف ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ لخرّبت صوامعُ؛ جمعُ صومعةٍ وهي بناءٌ مستطيلٌ مرتفعٌ اشتُهر في بعض المعابد كالمئذنة عند المسلمين، وبِيَع جمعُ بِيعَة وهي من أماكن العبادةِ، واختلف من الملّةُ المعنيّةُ بهذهِ الأماكن؟ قيل: الصّوامع لليهود والبِيَعُ للنّصارى حين كانوا على الحقِّ، وأوردَ "هدّمت" بالتّشديد تلويحًا بأنّه يُؤتى عليها على غيظٍ وشدّةٍ ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ مختلفُ المعابد التي يصلّى فيها، قيل: هي ضربٌ من المعابد اليهوديّة معرّبةٌ عن العبرانيّة وأصلها (صالُوثا)، والظّاهرُ أنّه عمّمَ الأماكن المخصّصةَ الأخرى معبّرًا عنها باسم أظهرِ الأحوالِ فيها وهو الصلاة، وجوّزَ بعضٌ تقديرَ: وعُطّلت صلواتٌ ﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ ولهدِّمت مساجد المسلمين التي ينبغي أن تظلَّ علمًا شامخًا لأنّ اسم الله يذكرُ فيها كثيرًا، والكثرةُ هنا محمولةٌ على دوام الذّكر فيها، والظّاهر أنّه خصَّ المساجد بهذا الوصف" يذكر فيها اسم الله" لأنّها أماكن العبادةِ الحقّة المستمرّة؛ وفي اسمها ما يسطعُ بشرفها الباقي إذ حملت عنوان الخضوع؛ على أنّه يجوزُ عود الوصف إلى الأماكن الأخرى كذلك، والحاصلُ أنّه لو لم يدفعوا لَحورب ذكرُالله و انتشر الباطل مكانه ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ والله يعدُ بالنّصرِ المبين كلَّ مَن نصرَ دينه، واللاّمُ في "لينصرنّ" موطّئةٌ لقسمٍ، وقد تحقّق وعدُ الله هذا في الرّعيلِ المسلم الأوّل فكان شاهدَ إعجازٍ على صدقِ القرآنِ، وما علينا إذا أردنا أن ينصرنا الله تعالى إلا أن ننصر دينه بالعمل به والدفاع عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إنّ الله هو صاحب القوّةِ المطلقة التي بها أوجد كلَّ شيءٍ؛ وهو صاحب العزّةِ التّامّة التي يقهرُ بها كلَّ أحدٍ، وأظهر اسم الجلالة وحقّه الإضمار تربيةً للمهابة.

ثمَّ يعدّدُ أوصاف الذين يستحقُّون نصرَالله الموعود ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ﴾ الذينَ إذا يسّر الله لهم في الأرض حياةَ أمنٍ ورخاءٍ أحيوا شعيرةَ الصّلاةِ وواظبوا على أداء الزّكاةِ، وعموم الآية لا يُنافي أن يكونَ هذا ثناءً ظاهرًا للمهاجرين بالإخبارِ عن حالِهم الحسن قبل أن يقعَ ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ووجّهُوا عباد الله إلى مكارِم الأعمالِ وأشرفها ونهوهم عن

سيّئها ومنكرِها، وهذهِ أصول الدّين العظمى في تحقيقِ النّصرِ وبتضييعها لا يرتجى نصرٌ، فبالصّلاةِ زكاةُ النّفوس؛ وبالزّكاةِ تقاربُ المتعايشين وتآلُفهم؛ وبالأمرِ والنّهيِ تسود قوانين الصّلاحِ بينهم ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ ولله وحدهُ ترجعُ كلُّ الأمورِ نشأةً وتصريفًا، وفي هذا تأنيسٌ للمجاهدين لئلاَّ يستَبطِئوا النّصرَ.

٣٥. سنّةُ الله في إرسالِ المنذرين وعقاب المكذّبين و إثابة الصّالحين

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ(٤٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)﴾.

وتسليةً للرّسُول ﷺ ممّا كان يجدُه من قومه ذكّرهُ بحالِ بعضِ الأقوام قبله مع أنبيائهم ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ وإذا لمستَ أيّها الرّسُول ﷺ من قومك تكذيبًا لدعوتكَ، والشّرطُ"إن" هنا يفيدُ توقّعَ التّكذيبِ في أيّ مرّةٍ، وجاء "يُكذّبوك" بالمضارع تنبيهًا إلى سنّةِ ذلك التّكذيبِ المتجدّد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ فاعلم أنّ مَن قبل قومك مِن قومِ نبيّنا نوحٍ؛ وقوم نبيّنا هودٍ وهم "عاد"؛ وقوم نبيّنا صالح وهم "ثمود"؛ قد كذّبوا أنبياءهم كذلك، وفي هذا إرشادٌ له ﷺ بأن يقتديَ بصبرِهم، ومفعول "كذّبت" محذوفٌ تقديرُه: أنبياءَهم، وجاء بالتّأنيثِ"كُذبت" لأنّ القوم اسمُ جمعٍ جازَ تأنيثُه حيثُ هو مؤوّلٌ هنا بمعنى الجماعة، وذكر عادًا وثمودًا بأسمائهما لأنّهما اشتهرا بهما أكثر ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ وكذا قوم النّبيّ إبراهيم؛ وقوم النّبيء لوطٍ؛ وقوم النّبيّ شعيبٍ "أصحاب مدين" نسبةً إلى جدّهم أو مكان إقامتهم؛ قد كذّبوا أنبياءهم -على جميع الأنبياء السّلام- وشعيبٌ أرسل إلى أصحابِ الأيكةِ أيضًا وخصّ أصحاب مدين لأنّهم في التّكذيب أشدّ؛ ولم يذكُرهم

بعنوان القوم، فلم يقل: وقوم اصحاب مدين لدفعِ تكرير كلمة قوم ثلاثًا ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ وكذّب فرعون وقومه نبيّهم موسى، ولم يقل: قومه لأنّ بني إسرائيل لم يكذّبوهُ بل كذّبه القبط قوم فرعون، وخصّه ببيانِ تكذبيه لشدّة ما لقيه مع وضوحِ براهينه وكثرتها؛ والمراد إن صبر أولئك مع كلِّ ذلك فاصبر أنت كذلك يا محمّد ﷺ ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ فأمهلتُ الكافرينَ باستدراجهم حتّى إذا اطمأنوا لحالِهم أخذتُهم بالعذابِ الشّديد بالغرقِ والرّيحِ والصّاعقة والخسف وغيرِ ذلك، و"أمليتُ" أمهلتُ مِن الْمَلَاوَةِ وهي المدّةُ الزّمنيّةُ، والأخذ الإهلاك؛ استعيرَ من القبضِ على الشّيءِ بعد انقضاءِ مدّة إطلاقه، وذكرهم بعنوان الكفر إشارةً إلى السّبب الذي استحقُّوا به العذاب، والمراد وكذلك حال قومك يا محمد فالله يمهلُهم لم يهملهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فتدبّروا كيف أخذناهم؛ والاستفهامُ مسوقٌ لبعثِ التّعجّبِ منهم كأنّه قال: فاعجب من نكري فيهم إذ أبدلوا حياةَ السلامةِ شقاءً وعذابًا؛ فتضمّن هذا وعيدًا للكفّارِ المكذّبين بالرّسُول ﷺ، و"نكير" مصدر أنكر على الشّيء إذا لم يُرده؛ حذفت ياء المتكلّم فيه، وعبّرَ بإنكارِه دون عذابه مناسبةً للنّهي عن المنكرِ السّالفِ حثًّا على التّأسّي بالخالِق فيما يسعُ التّأسّي به ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكم من قريةٍ عمّرناها في الأرض حتّى كانت نهايتُها الإهلاك والاستئصال بسبب ظلمها لنفسها بالشّرك أو العصيان، وذكر القرية مجازًا والمقصود أهلها، و"كأيّن" أصلُها "كأيٍّ" وهي غايةٌ في تصويرِ كثرة القرى؛ تنبيها إلى أنّه من شأنِ النّاس عدم الاعتبارِ بمن قبلهم ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ فهي بعد إهلاكها مدمّرةٌ لا شيء قائمٌ فيها، والعروش جمعُ عريشٍ وهو ما علا من البناء والشّجرِ ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ وكم من بئرٍ فيها صارت معطّلةً عن الانتفاع منها بسبب خلوّ القريةِ، وكم من قصرٍ مشيدٍ انهدم مع هلاك أصحابه أو بقي هيكلاً أثريًّا بعدهم، والعطفُ هنا مع قريةٍ أي فِعل الإهلاكِ شمل البئر والقصر، وسمّيت البئرُ بذلك لأنّها بُئِرَت بمعنى حُفرت، و"مشيد" أي المرفوع بالشّيدِ وهو الجصُّ الذي تتماسكُ به الأحجار، وذكر الآبار والقصور إشارةً إلى طولِ تعميرِهم فيها وتعلُّقهم بها بإنجازِ ما تطول مدّة إنجازه واستغلاله، وهذهِ وإن لم تَهلك حقيقةً فإنّ خلوّها عمّن يتعهّدُها بالصّيانة مفضٍ إلى هلاكها ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم يسعَ أولئك الشّاكّون في قدرةِ الله على إهلاكهم في الأرض، وهذا الإستفهامُ إنكارٌ لحالِهم في عدمِ السّيرِ للاعتبارِ، أو للأمرِ بمعنى: سيرُوا، أو للتّعجيبِ منهم كيفَ تركوا السّير مع فوائدهِ فلم

يسيرُوا، وهم بلا شك يسيرون في الأرض، لكن لما كان سيرهم يخلو من النظر والاعتبار عدَّ سيرهم كعدمه لأنّه خالٍ من المقصد الأسمى من السفر﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ألم يسيرُوا سيرًا تكونُ لهم بسببه قلوبٌ يتدبّرُون بها ما يشاهدونه وآذانٌ يسمعون بها سماع اعتبارٍ للأخبارِ والعبر، وعلى هذا فالفاءُ في "فتكون" سببيّةٌ، والمراد سيرُهم محطّةٌ لترويضِ العقولِ والآذانِ على التّعقّلِ والسّماع؛ لأنَّ في الأسفارِ من العبر ما يفتقد في الأوطان، وذكر السّماع لأنّ من شأنِ المسافرينَ استذكار أخبارِ القرى والأقوام التي يلتقون بها، وعدّهم بمنزلة من لا قلب له ولا أذنٌ لأنّهم يملكون ما لا ينتفعون به ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ فإنّ العمى الحقيقيّ ليس عمى الأبصارِ عن النّظرِ وإنّما هو عمى القلوب عن الاعتبارِ، وأكّد الكلام تثبيتًا لمضمونه لأنّه مخالفٌ للشّائع المتصوّر، والأسماع والأبصار آلة حصول العلم بما يُسمع وما يُبصر لكن هذا لا يحصل إلا إذا كانت القلوب سليمةً حيّةً حتّى تنتزع من المعلوماتِ آثارها للانتفاع بها، ووصف القلوب بأنّها في الصّدور تلويحًا بأنّها شيءٌ لصيقٌ بهم شأنه أن يعتنوا به واهتمامًا بتربية الباطن وليدفع المجاز عن الكلام.

وبعد النّكير الشّديد على الكفّار يحكي حالهم العجيبة في استعجالِ العذابِ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يسألك الكفّار أيّها الرّسُول لشدّةِ جهلهم حين أصرُّوا على كفرِهم سؤالاً على سبيل الاستهزاء بك وتعجيزِك وإنكارِ حقائقِ دعوتكَ: أن تأتيهم بالعذابِ الذي تتوعّدُهم به عاجلاً غير آجلٍ، وحكى استعجالهم بالمضارع إشارةً إلى تجدّدِه، والباء الجارّةُ في "بالعذاب" صلةٌ للتّأكيد ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ والله لا يغيّرُ وعدهُ بالعذابِ ولا يؤخّرُه عن ساعته؛ وخلفُه للوعدِ ولو عن إشفاقٍ منقصةٌ له حاشاهُ فهو العالم بالمآلِ لا تبدُو له البدوات، والوعدُ مستعملٌ فيما هو خيرٌ وما هو شرٌّ، والجملة اعتراضيّةٌ سيقت للتّنبيه على دقّةِ حصول موعودات الله طمأنة للمؤمنينَ لئلاَّ يستبطؤوا عذابهم؛ وقد أخذوا بعذابٍ فظيعٍ يوم بدرٍ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ومهما رأيتُم العذابَ بعيدًا فإنّهُ عند الله قريبٌ؛ فيومٌ عند الله كألفِ سنةٍ من حسابِكم، والآيةُ تمثيلٌ للمدّةِ وليست تحديدًا، وإن فسّرناهُ بالعذابِ الأخرويّ فالمرادُ: سترون اليوم الأخرويّ كألفِ سنةٍ من دُنياكم لشدّةِ العذابِ، وقابل اليوم المفرد بالسّنين العديدة إمعانًا في تصويرِ الفارقِ الكبير﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ

لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ وكم من قرية أمهلتُها لم أعاجلها بالعذابِ مع أنّها مستغرقةٌ في الفسادِ والظّلم وحين حان أجل إهلاكها أهلكتُها، وتضمّن هذا تحذيرا من الاغترار بالسّلامة فإنّ ذلك ليس معيارًا لرضا الله عن الحال، وفي الآيةِ السّالفة ذكر الإهلاك مباشرةً وهنا نوّهَ إلى الإمهالِ تنبيهًا بأنّه رحمةٌ منه لو شاء لم يؤخره ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ وإلى الله مرجعُ كلِّ أمّةٍ للحسابِ والفصلِ في أعمالها، والمصيرُ مصدرٌ ميميٌ من "صار"، وجعلُه لله وحدهُ كنايةٌ عن عدم الإفلات منه.

ثمّ يوصي الله رسوله ﷺ بأن يبيّن للكفّارِ بأنّ استجلاب العذابِ ليس من مهمّته تثبيتًا له وسدًّا لأماني الكفّارِ بأنّهم بالتّعجيزِ قد يصدّونه عن مهمّته ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يا أيّها النّاسُ ليست مهمّتي إلاّ أن أتفرّغ إلى إنذاركم بالعذابِ بتبيينٍ و إيضاحٍ؛ أو مبينٌ لمختلِف تعاليمِ الدّينِ، والافتتاحُ بـ"قل" وأسلوبِ النّداء للاهتمام وجلبِ الانتباه. وبعد اجتهادي في الإنذارِ لا يخلو حالُكم من صنفينِ مصدّقٍ ومكذّبٍ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فالذين صدّقُوا بكلِّ بما جئتُهم به وعملوا العمل الصّالح بمقتضى ما آمنوا به ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعدُهم الله بمغفرةٍ تمحو كلّ ذنوبهم وبرزقٍ في غايةِ الكرم في الجنّةِ، ولا شكَّ أنّ من أعمالهم المقصودة التّوبة فهي مفتاح المغفرة والجنّة؛ أو المغفرةُ هنا منصرفةٌ إلى ما كان منهم قبل الإسلام، ومن اللّطيف أنّه قابل أمرين من التّكليف"آمنوا وعملوا الصالحات" بأمرين من المكافأة"مغفرة ورزق كريم"، وذكر البشارةَ مع أنّه صرّح بمهمّةِ الإنذارِ فقط إيقادًا لعزائم الكفّارِ لأنّ السّياق فيهم، أو يقدّرُ نذيرٌ وبشيرٌ ووقع الحذفُ للفاصلة ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ والذين حاولُوا جهدهم في مشاقّةِ الدّعوةِ بالآياتِ التي فيها هدايتُهم، و"معاجزين" مفاعلةٌ في طلبِ العجزِ فالكافرُ في غيّه يريدُ إطفاء مشعل الخير والمؤمنُ بالمقابل يدفعه ويواصل، شبّه سعيهم في هذا المضمارِ بحالِ السّاعي إلى نقطةٍ ليصل إليها؛ والمراد التّلويح بالباقين على الكفر﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أولئك هم أهلُ الجحيم الأبديّ، وذكرُ الصّحبة تلميحٌ إلى الملازمة والبقاء، و"الجحيم" النّارُ التي اشتدَّ اتّقادُها؛ وهو اسمٌ من أسماء النّار الأخرويّة.

٣٦. سنّة الله في إثباتِ الحقّ وإزهاق الباطِل وأهله

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤) وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْيَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧)﴾.

وتتمّةً لتسليةِ الرّسُول ﷺ ممّا يجدُه في طريقِ دعوته يطمئنُه بالحفظِ من كيدِ الشّيطان الذي قد كان في خطّته التّعرّض لكلّ بشرٍ على وجه الأرض بمن فيهم الأنبياء والرّسل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ وما أرسلنا قبلك أيّها الرّسُول ﷺ أحدًا من الرّسل أو الأنبياء، و"من" الثّانية صلةٌ لتأكيدِ العموم، والعطفُ في الآيةِ دليلٌ على مغايرةٍ بين مدلولِ لفظِ الرّسُول والنّبيّ، ولعلّ الفرقَ الجوهريّ تلقّي الرّسالةِ من عدمه؛ فالرّسول من بلغته رسالةٌ سماويّةٌ كما يدلّ اسمه، وكلاهما متلقٍّ لما عدا الرّسالةِ من التّأييد الإلهيّ مأمورٌ بالتّبليغ وموصوفٌ بمحاسنِ المزايا ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إلاّ كان من شأنه أنّه إذا أحبّ شيئًا دنيويًّا قذف الشّيطانُ في حبّه له ما يصرفُه عن مهمّته ودعوته، أو المتمنى أمرٌ خيريٌّ كأن يرجو الهداية لجميع أمّته فيصدُّه الشّيطان عن التّفكير الإيجابيّ في ذلك، وأصلُ التّمنّي تحديث النّفس بما يبعُد حصوله، وما يلقيه الشّيطان كنايةٌ عن وسوسته، وفسّر بعضٌ تمنّيه بقراءته، لأن من معاني الأماني: القراءة، وعلى هذا فالمعنى: إذا قرأَ النبي أو الرسول ألقى الشّيطانُ في قراءته من الشّواغل الذّهنية ما يصرفه عنها ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ فيزيلُ الله وساوس الشّيطان ومشغلاته ويثبتُ آياته المحكماتِ في قلبه ﷺ بسببِ اعتصامه بنورِها، وأعادَ اسم الشّيطانِ إمعانًا في تصويرِه بمهمّته الخبيثة، كما أعاد لفظ الجلالة للتّنبيه على شأنِ الله في حفظ آياته، وفي الآية دليلٌ على أنّ أنبياء الله ورسله معرّضون لسهو النّفس ووسوسة الشّيطان، ولكن الله تعالى يعصمهم من اتباعها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والله هو العليم بأحوالِ خلقه وما يجدونه من وسوسة الشّيطان، وهو المتصرّف بالحكمة في شؤونهم، وأظهر اسم الجلالة في موضع إضمارٍ ليعظُم اسمه في النّفوس في سياقِ ذكرِ مكايد الشّيطان ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وترتّب على إلقاء الشّيطان للوسوسة أن

فتن الله به الذين في قلوبهم مرضٌ بالشّكّ والارتياب؛ والذين قست قلوبهم فكانت لا تنتفعُ بالذّكر؛ من أهلِ الشّرك وغيرِهم، ومعنى فتنهم بما يلقيه الشّيطان جعلُه سببًا لمزيدٍ من فُرصِ ضلالهم، ومرضُ القلوب كنايةٌ عن الشّكِّ الذي يعتريها في الدّين فهي غير سليمةٍ، وأمّا قسوتُها فاستعارةٌ لحالِ الحجرِ لها إذ صارت لا تلينُ لموعظة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ وإنّ الظّالمين لأنفسهم بعدم تزكيتها وتحصينها من الشّيطان لفي نزاعٍ قائمٍ مع الحقّ لا ينفكُّون عن التّعرّضِ له، ووصفهم بعنوانِ الظّلم إظهارًا لذميمِ خصالِهم ليحذّرنا منهم، وعبّر عن توغّلهم الشّديد في الشّقاق بالبعد على سبيلِ الاستعارةِ ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ونقدّرُ إلقاء الشّيطان فيما يتمنّاهُ الرّسول أو النّبيّ ثمّ نحفظهُ من كيدِه؛ لأجلِ أن يستيقن الذين آمنوا أنّ ما تجيء به رُسل الله و أنبياؤهُ ومن ذلك القرآن هو الحقُّ لا غيرُهُ؛ وهو الذي لا شكَّ فيه ولا سبيل للشّيطان إليه، والعلم الذي أتوهُ العلم بالوحي، واختار لهم ذلك اللّقب مدحًا لهم لاجتهادهم في توظيف عقولهم بنورِ الوحيِ لإدراك الحقّ وتمييزِه من الباطِل، وفي الآية بيان لمزية العلم، وفضله وشرفه ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ فيزدادوا بمضمونه إيمانًا فتخضع قلوبهم للحقّ الذي جاء به ولا يكونوا كحال من قست قلوبهم أو مرضت، و"به" عائدٌ إلى القرآن المعلوم من المقام، والإخبات التّذلّل والخضوع ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وإنّ الله ضمن هداية كلّ من آمن بالقرآن إلى سبيله الأقوم كما تكفّل بإنقاذه من كافّةِ وجوهِ الضّلال، و أكّد الكلام إرغامًا لحزبِ الشّيطانِ الذي يحاولُ جهدهُ في الإضلال، وزاد وصفهم بالإيمان مبالغةً في المدح؛ وليومئ بأنّ إيمانهم سبب هدايتهم ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ والذين كفرُوا سيبقون في شكٍّ دائمٍ من القرآنِ حتّى تحلَّ عليهم لحظةُ قيام السّاعة من غيرِ إشعارٍ مسبق أو يباغتهم الموت، وموتُ كلّ إنسانٍ ساعتُه، وفي هذهِ الآية مزيد بيانٍ لمطلع السّورة في معنى المباغتة ﴿أَوْيَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أو يحلُّ عليهم عذاب يومٍ فظيعٍ؛ هو يوم قبل قيام السّاعة؛ والعرب تسمّي الحوادث العظام أيّامًا، أو أراد به يوم القيامة، وسمّي بالعقيم على سبيل الاستعارة لأنّه لا يوم يليه وكأنّ كلّ يومٍ يلدُ الذي بعدهُ؛ أو سمّي بذلك لأنّه لا ينتجُ خيرًا، واختار له هذا الوصف مبالغةً في التّهويل، وتنكير "يومٍ" للتّعظيم ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ السّلطانُ كلّه لله يوم القيامة وهو الحاكم وحدهُ بين فريق الإيمان وفريقِ الكفرِ فيما اختلفوا فيه،

و"يحكُم بينهم" بيانٌ لمعنى مُلكه يومئذٍ، ونتيجة الحُكم بينهم: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ فالذين آمنوا إيمانًا صادقًا وعملُوا من الأعمال صالحًا سيكرمون بالدّخول في جنّات النّعيم الدّائم، و"النّعيم" حالٌ لكثرةِ النّعم وتنوّعها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ والذين ماتوا على الكفرِ بالله والتّكذيب بآياته، المُنزلة أو الكونية، فأولئك ينتظرُهم عذابٌ يهانون فيه جزاءً وفاقًا لاستهزائهم بالدّين وكفرِهم به، واستعمل الإشارةَ "أولئك" للدّلالةِ على أنّ من ذكرُوا قبلها أحرياء بما يردُ بعدها من الحُكم؛ وقال"أولئك" وهي إشارة للبعيدِ تلويحًا ببعدِ مكانتِهم في الشّرّ، وعبّربلامِ الاستحقاقِ في "لهم" إثباتًا للعذابِ و إيجابًا؛ بخلافِ النّعيم فأوردهُ بـ"في" المشعربمعنى التّفضّل، وذكر التّكذيب بعد الكفرِ لأنّه نتيجةٌ له.

٣٧. وعدُ المهاجرين المحتسبين بالجنّة

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ(٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِوَيُولِجُ النَّهَارَفِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٦٢)﴾.

وبعد الثّناء على عموم أهلِ الإيمان والعمل الصّالح يخصُّ المهاجرين في سبيله بالذّكر ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾ والمؤمنون الذي خرجوا من ديارِهم وأموالِهم مفارقين وطنهم الأصليّ لأجلِ نصرةِ دين الله والالتفافِ حول الرّسُول ﷺ ثمّ قتلُوا في نزالٍ أو جهادٍ أو ماتُوا بسبب المشقّةِ وتبدّل الأحوال وغيرها من الأسباب ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وعد من الله بأنّه سيُكافئهم برزقٍ حسنٍ في الجنّة، وفي الجُملةِ قَسَمٌ مقدّرٌ أي: والله ليرزُقنّهم، وفي الآية تنويهٌ بعظمةِ الهجرةِ عند الله بتسويةِ الميّتِ بعدها بالجهادِ أو بغيرِه؛ وبذكرِعظيمِ جزائها، ثمّ ينبّهُ بأنّ رزقهم هذا خير الأرزاق لأنّه من خيرِ الرّازقين ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وإنّ الله لهو خير من أعطى ووهب لأنّه لا معطيَ مثله؛ ويُعطي بلا انتظارِ مكافأةٍ؛ ويهب من ملكه، وهو من يرزُق في الجنّةِ بغيرِ حسابٍ، والجملة اعتراضيّةٌ سيقت لنكتةِ الثّناء، وفي تأكيدها ترسيخٌ لما قد يُغفلُ عنه من مدلولها ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾

ووعدٌ من الله أنّه سينزلُهم في مقام كريمٍ في الجنّةِ ترتاحُ إليه نفوسهم مكافأةً على صبرِهم في الدّنيا، وذكرُ المدخل مجازٌ مكان الإقامة؛ لأنّه سببٌ للوصولِ إليهِ؛ وفي ذكرِه تأكيدٌ وزيادةُ بيانٍ للرّزقِ الحسن بأنّه منتهى العطاء حتّى أرضاهم فصارُوا لا يطلبون غيره لأنّه لا أحسن منه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ وإنّ الله لعليمٌ بأحوال المهاجرين وما لاقوهُ وما تشتهيه نفوسهم من الرّزقِ في الجنّة حتّى يسخّرُه لهم، وهو الحليم عنهم لا يؤاخذهم بما قد أخطأوا فيه وتابُوا عنه.

﴿ذَلِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ للرّبط بين ما مضى وما سيأتي من الكلام. فلمّا انتهى إلى صفةِ الحلم فيه نوّهَ إلى التّأسّي بها بذكرِ عقوبة المثل؛ مناسبةً للإشارةِ السّابقة إلى الإذنِ بالقتالِ كي يكون منطلقه صحيحًا ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ والذي لحقته إساءةٌ فردَّ الإساءة التي لحقته بمثلها، وفعلُ المبتدئ ليس عقابًا بل هو تعدٍّ وإنّما سمّاهُ بذلك تجوّزًا، ولم ينبّه إلى العفوِ هنا ابتداءً كما في قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشّورى: ٤٠] لأنّ أحكام المسلمين فيما بينهم تختلفُ عن أحكامهم مع أعدائهم؛ والسّياق هنا في الدّفاعِ عن الاعتداء المقصود عن حِمى المسلمين، ومن بديع التّشريعِ الإسلاميّ المساواةُ بينَ الأجناس والأفرادِ في تقريرِ الرّدِّ بالمثلِ لأنّ كلّ أنواعِ التّفاضلات مزرعةٌ للفتنة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ لكن اعتُديَ على الرّادِّ بالمثل باعتداءٍ جديدٍ بعد ردِّه بردٍّ مشروعٍ، ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ وعدٌ من الله بأنّه سينتصرُ للمظلوم فلا يبغِ على من بغى عليه بالمثل، واللاّمُ في "لينصرنّه" موطئةٌ لقسمٍ، واكتفى بذكرِ الوعدِ بالنّصرِ عن النّهيِ عن البغيِ بالمثل ترغيبًا في الاستجابة؛ لأنّ النّزاع المفتوح وخيمةٌ عواقبُه لا بدَّ له من حدٍّ، ثمَّ نبّه إلى عفوه وغفرانه حثًّا على المسارعة إلى التّوبة إذا ما حدث في الأمرِ تقصيرٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ إنّ الله أهلٌ للعفوِ عمّن بدت منه زلّةٌ في هذا الصّدد غفورٌ عن خطئه إذا تاب، وفي هذا دعوةٌ للتّأسّي بعفوِ الله فهو على عظمته وقدرته على الانتقام يعفُو فكيف بعبادهِ لا يعفُون! والعفو المرغّب فيه هنا عفوان؛ عفوٌ عن البغيِ الجديد؛ وعفوٌ عن الزّيادةِ على المثل لأنّ من شأنِ المظلوم أن يثور غضبه فيردَّ على الجناية ويحاول الزّيادةَ مقابل جرأةِ ابتدائه بالظّلم إشفاءً لغليل غضبه.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى نصرِ الله الموعود بأنّ الله قادرٌ على الإتيانِ به، ثمّ يستدلُّ للمعقولِ بالمحسُوس من الخلقِ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ لأنّ الله هو المتصرّف في الكونِ كلّه؛ ومن

عظيم تصريفه أنّه يدخلُ اللّيل في النّهارِ شيئًا فشيئًا حتّى يشيع الضّياء، ويدخلُ النّهار في اللّيل شيئًا فشيئًا حتّى يعمّ الظّلام، والتّعبيرُ بالإيلاجِ استعارةٌ لهيئةِ الإدخالِ اللّطيفة، ولعلَّ الاستدلال بهذا خصوصًا تلميحٌ إلى أنّ تقدّم الأيّام سببٌ لحلول المفاجآت؛ وأنّ تجدّدَ الأيّام ينبغي أن تتجدّد معه الأحوال؛ كما أنّه مظهرٌ من تغليبِ شيءٍ على آخر بعد أن كان على ضدِّه مناسبة للانتصارِ الآنف؛ وكلّ ذلك مع صلاحيّة تشبيه الكفر باللّيل والإسلام بالنّهار ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ولأنّ الله سميعٌ لأقوال عباده وبصيرٌ بكلِّ أحوالهم، فكيف يغفلُ عن أنين المظلوم أو تخفى عنه أحواله!

﴿ذَلِكَ﴾ إشارةٌ إلى صفةِ السّميعِ البصير؛ وإلى كلِّ ما تصلُح الإشارةُ إليه كآية الإيلاجِ وعفو الله وغفرانه وتحقيق النّصرِ وتشريع الرّدِّ بالمثل ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ بأنّ الله هو الإله الحقّ المستحقُّ للعبادةِ؛ وأنّ ما دونه من المعبودات لا تستحقُّ العبادةَ في شيءٍ لأنّها لا تتّصفُ بشيءٍ من تلكم الكمالاتِ، وقصرُ الحقِّ على نفسه تعالى حقيقيٌّ أمّا قصرُ الباطلِ على ما يدعون من دونه إضافيٌّ نكتتُه المبالغة في تحقيرِ أصنامهم، وبين "الحقِّ والباطل" طباقٌ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ وأنّ الله هو المتفرّدُ بالعلوِّ عظمةً وهو الكبيرُ قدرًا على كلِّ معبودٍ مخلوقٍ.

٣٨. إثباتُ أصولِ الدّينِ الصّحيحةِ وتركُ مجادلةِ المشركين

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)﴾.

ثمّ يزيدُ تفصيلاً في دلائل قدرته توطئةً لذكرِ البعث قُبيل أواخرِ السّورة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ألم تعلم أنّ الله أنزل من السّماءِ غيثًا نافعًا ارتوت به الأرض فاخضرَّ وجهها بمختلِف الزّرع المبهجِ والنّافع، و"تصبح" بمعنى تصيرُ؛ وورد بالمضارع تلويحًا بحالِ

استمرارِ الأرض على تلك الحالِ مدّةً، والمخاطب كلّ بصيرٍ ذي قلبٍ يعتبرُ، والاستفهامُ تقريريٌّ بمعنى: قد رأيتَ؛ ويجوزُ حمله على الإنكارِ على عدم التأمل في هذه الآية العظيمة، والرُّؤيةُ علميّةٌ أو بصريّةٌ والأولى أعمّ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ إنّ الله لطيفٌ بعباده إذ أغاثهم خبيرٌ بأحوالِهم من القنوط والاستبشار، وكذا لطيف في خلقه لدقائق الأشياء خبيرٌ في إنشائها و إنمائها ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ هو المالك لكلِّ ما في السّماوات من الأجرام والأفلاك والمخلوقات ولكلِّ ما في الأرض من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجمادات، وتقديمُ "له" للقصرِ أي له لا غيرِه، وفي هذا تلميحٌ بأنّ المالك لكلِّ شيءٍ أولى بأن يعبد ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وإنّ الله هو الموصوف وحدهُ بالغنى المطلق لأنّه مالك كلِّ شيءٍ فلا يحتاجُ إلى أحدٍ، وهو المحمود من كلِّ الخلائق على خلقه و إنعامه، وجمع بين الصّفتينِ لأنّ الغنى سبب المحمدةِ إذا صلح وهو مظنّة الشّرِّ إذا فسد والله جلَّ عن ذلك.

وبعد ذكرِ آيةِ إنزالِ الماءِ السّماويّةِ جدّد الاستفهام التّقريري مناسبةً لتبدّلِ وضع الرّؤيةِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ ألم تعلم أنّ الله ذلّل لأجلكم جميع ما تحتاجونه للعيش في الأرض، وتسخيرُ الأشياء تسهيلُ الانتفاع بها والتّمكينُ منها، وقال: "لكم" مع أنّ المخاطب بالرُّؤية واحد لأنّ بسط النّعم شاملٌ للكلِّ، ثم يضربُ الله مثالاً بأعظم المسخّرات عطفًا للخاصّ على العامِّ لمزيّةٍ فيه فيقول: ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ وذلّل السّفن العظيمة تسيرُ على البحرِ حاملةً الأثقال محفوظةً من المخاطر بإذنِ الله، والفلك اسمُ جمعٍ؛ وهو السّفن الضّخمة، وعبّر بالجريِ الذي مقتضاهُ تسارع وتيرةِ قضاء المصالح؛ وهو مظهرُ التّسخيرِ في السّفنِ حيث صارت تلتزمُ سطح البحر مع عظمِ هيئتها ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ ويمسكُ كلّ ما فوقكم من الأجرام والنّجوم وغيرها لئلاّ تقعَ على الأرض فتهلككم، والإمساكُ مستعارٌ لمعنى المنعِ، أي : يمنع السماء من الوقوع على الأرض، وعبّر بعموم السّماء عمّا حوته على سبيل المجازِ، وفي بيانِ هذا تنويهٌ بأنّ المسخّراتِ يكمّلُ بعضُها بعضًا لا تضارُب بينها، وجاء في الاستعمالِ اللّغويّ إطلاق السّماء على ماء المطرِ؛ ولذلك تأول بعض المفسرين بأن إمساك السماء بمعنى يمسكُ تراكماتِ الماء أن تقع على الأرض كيلا تغرقها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ إلاّ وقوعا قد يحدث بأمرِه، والسّياقُ جارٍ على الامتنان؛ وذكرُ وعيدِ إيقاعِ ما في السّماءِ على الأرضِ جاء لبيان أن نظامِ السّنن الكونية لا يجري على من بيدِه حرّية التّصريف ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

إنّ الله بعبادِه جميعًا أهل الرّأفةِ البالغةِ إذ يسّر لهم سبل العيش في هذه الأرضِ رحيمٌ لضعفهم، ولَمّا سبقَ الحديثُ عن دفعِ مضارّ وجلب منافع أورد صفة الرّأفة التي من مقتضياتها دفع المضرّةِ، والرّحمة التي من لوازمها جلب المصلحة، وبتمام هذا استوعبت الآية عالم البرّوالبحرِوالسّماء.

وبعد ذكرِإحياء الأرضِ من مواتها حتّى تكون مخضرّةً ينوّهُ بالبعثِ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ والله هو الذي بدأَ إخراجكم أوّل مرّةٍ وهو الذي سيُميتُكم إذا انقضت آجالُكم ثمَّ يبعثُكم مرّةً أخرى أحياءً للبعثِ والحساب، وذكرُ الإحياء الأوّل فيه استدلالٌ للبعث الثّاني لأنّ من قدر على إنشاء شيءٍ لا يعجزُ عن إعادته لعلمه بكيفيّةِ إبداعه، وبين الإحياء والإماتة محسّنُ الطّباق ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ومع كلِّ البراهين على قدرة الله فإنّ الإنسان شديد الكفران بدلائله، والمراد بالإنسان هنا الكافر؛ تعريضًا بالمشركين الذين لم تنفتح بصيرتُهم للموجودات الكثيرةِ التي أبدعها الله حتّى عبدُوا غيرهُ وتركوا من استحقّ العبوديّة.

وزاد تعريضًا بالمشركين الذين ادّعوا سلامةَ منهجِ الآباء مع اختلافه واضطرابه ببيان أنّ ما يدعو إليه محمّدٌ ﷺ من توحيدِ العبادةِ منهجٌ سبق في كلِّ الأمم ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ لكلِّ أمّةٍ من الأمم عبر الأزمان الغابرةِ قد جعلنا شريعةً يتّبعها أفرادُ تلك الأمّة، فوحدة منسكها دليلٌ على وحدةِ معبودها، والآية دليلٌ على أنّ الله ضَمِن وصول شرعه إلى كلِّ النّاس بوجهٍ ما، والمنسك عموم الشّريعةِ والمنهاجِ الدّينيّ ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ نهيُ الغائبِ محمولٌ على النّفيِ الإنكاريّ بمعنى: فلا يحقُّ لأحدٍ أن يجادلك في الشّرع الذي جئت به في صغيرٍ أوكبيرٍ فلست بدعًا من الرّسل، والآية شاهدٌ على خطورةِ الاعتراض على ما ثبت من سنّةِ الرّسُول ﷺ ومنهاجه، وحمل بعضٌ الآية على سبيلِ التّوجيه الدّعويّ مناسبةً للسّياق؛ فالنّهيُ للنّبيِّ ﷺ في أن يكونُ مسبّبًا لِما يحدثُ تلك المنازعة ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾ فاثبت على طريقِ دعوتك إلى الله إنّك على الطّريقِ الصّحيح، وجاء بالتّأكيد هنا لنكتةِ التّثبيت لأنّ طول المكابرة وشدّتها قد تهزّ عظام القلوب، ومفعول "ادعُ" محذوفٌ تقديرُه النّاس، والفعل محمولٌ على معنى الثّباتِ والمداومةِ على الدعوة، فالرّسُول ﷺ منذ بعثته لم يتوانَ عن مهمّته ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن استمرُّوا في مجادلتك بعد بيان الحججِ وتفصيلها فلا تجادلهم، وقل لهم: الله عالمٌ بما تقومون به من قبيح الصّنائع، وتضمّن

هذا إنذارًا لهم، و"أعلم" صيغة تفضيلٍ مسلوبة التّفضيل بمعنى عالمٌ. ثمّ يقول الله: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الله يقضي بينكم أيّها النّاس يوم تقومون إليه للحساب فيفصلُ في جميع ما اختلفتُم فيه، والآية تضمّنت تربيةً دعويّةً رفيعةً في جعلِ حدٍّ لجدالِ المكابر وتفويض أمره لحكم الله بعد ذلك حتى لا يطول الجدال بلا فائدة ترجى، وتربيةً على أنّ المنهج المطلوب هو حسن سياسة الخلاف وليس القضاء عليه لأنّه من طبيعة الابتلاء.

٣٩. بيانُ شأنِ الله في قطعِ حججِ الكافرينَ وإعجازِهم وتهديدُهم بالنّار

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَيَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُوَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٧٤) اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)﴾.

وبعد بيانِ الإعراض الشّديد من الكفّاريبيّن الله بأنّه عالمٌ بالأحوالِ تثبيتًا لقلبِ الرّسُول ﷺ بأنّه لا تخفى على الله أعمال قومه ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ألم تدرِ أنّ الله يعلمُ جميع ما يحدث في السّماء وما يحدثُ في الأرض، والاستفهام إنكارٌ على عدم العلم بعد توفّر أسبابه؛ أو تقريريٌّ بمعنى: لقد علمتَ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ إنّ ذلك مثبتٌ في كتابٍ مسجّلٍ محفوظٍ، والإشارةُ عائدةٌ إلى الأمورِالحادثةِ عامّةً، وعبّربالكتابِ مجازًا عن الضّبطِ وعدمِ الإفلاتِ؛ ويجوزُأن يكون كتابًا على الحقيقة وقد أثبتت أجهزةُ الحفظِ المعاصرة إمكانية ذلك ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إنّ العلم بكلّ مجرياتِ الكونِ أمرٌسهلٌ يسيرٌعلى الله لأنّه ذاتيٌّ فيه لا يحتاجُ إلى مذاكرةٍ وبحثٍ، وأكّد الجملةَ لأنّ مضمونها ممّا قد يستغربُ ابتداءً، وقدّم الجاروالمجرورعلى متعلّقه للاهتمام.

ويبيّنُ الله إصرار المشركين على معبوداتهم مع ظهور بطلانها ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ يعبد الكفّار معبوداتٍ غير الله لم يوجّههم الله إلى شيءٍ منها بأنّه أهلٌ للعبادةِ، وهذا طريقٌ سمعيٌّ بدأَ بهِ لأنّه أقوى، وجاء "يعبدون" بالمضارع لبيانِ استمرارِهم على الانحراف التّعبّديّ، و"من دونِ الله" أفادت معنى إضافيًّا هو أنّهم يعبدون غير الله مع إعراضهم عن الله، والسّلطانُ الحجّة والبرهان؛ سمّيت بذلك لأنّها تقهرُ الباطل بمدلولها ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ويعبدون معبوداتٍ ليس لهم في اتّباعها علمٌ قاطعٌ يصلح لأن يثبتُوا به أحقّيّتها في العبادةِ، وهذا طريقٌ عقليٌّ؛ والمراد عبدُوها عن انحرافٍ محضٍ اتّباعًا للأهواء وتقليدًا للآباء ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ وليس للظّالمين يوم القيامة ناصرٌ يحفظُهم من عذابِ الله، أشارَ بهذا إلى أنّ معبوداتهم لا تملك لهم نصرًا ولا شفاعةً، وذكرهم بعنوان الظّلم تشنيعًا لهم وبيانًا لسببِ خذلانهم، و"من" صلةٌ لتأكيد عموم النّفي.

وزيادةً على بيانِ إشراكِهم يذكُر تكذيبهم بالآياتِ وإعراضهم عمّن يدعُوهم إليها ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قُرئت على الكفّارِ آياتُ القرآن واضحاتٍ حُججها على سبيلِ دعوتهم إليها وترك ما يعبدونه، وجاء الفعلُ مضارعًا لبيانِ تجدّد هذه الحال؛ وكان مبنيًّا للمجهول "تُتلى" تلويحًا بأنّ حنقهم و اقعٌ على من يتلُو الآياتِ أيًّا كانَ حنقًا لم يحصل إلاّ إذا تلاها عليهم، وقيّد الآيات بالبيّناتِ قطعًا لأعذارِهم بأنّ خللاً ما في صورةِ عرضها ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ ترى أيّها البصيرُ في وجوههم أماراتٍ من التّغيّظ والإنكارِ، وفي هذا كنايةٌ عن شدّةِ الغيظِ الذي ملأَ قلوبهم حتّى صارت صورته تفيضُ على ملامحِ وجوههم، والخطابُ لغير معيّنٍ بدليلِ "يتلون" الآتية، وذكرهم بلقب الكفرِ تقبيحًا لما اكتسبُوا ذميم الخصالِ بسببه ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ كأنّهم يريدُون الهجوم على من يقرؤون عليهم تلك الآيات، والسّطو البطش والتّعرّض بالسّوء، وجدّدَ فعل التّلاوةِ تقريرًا بأنّها السّبب الأساس في غيظِهم؛ وهذا مبلغٌ عظيمٌ من الانحرافِ عن الهدى إذ حَجبُوا عن أسماعِهم ما تصوّرُوا أنّه قد يؤثّرُ فيهم بمجرّدِ إحسان الاستماعِ إليه، و أنزل ملامح وجوههم منزلة التّلفّظِ بالإنكارِ ففرّع عليه أن أمر الرّسُول ﷺ بتوعّدِهم ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ﴾ قل أيّها الرّسُول ﷺ للكفّارِ هل أخبرُكم بشرٍّ يعظُم عليكم أكثر من الشّرّ الذي تقابلوننا به، أو بشرٍّ ترونه أعظم من التّغيّظ الحاصل لكم بالسّماع للآيات؛ بمعنى إن حصل لكم غيظٌ بسببِ ما نتلُوهُ عليكم فازدادوا

غيظًا أشدّ بما سننبئكم به، والاستفهامُ للاستئذانِ التّهكّميّ واختيارُه هنا لجلبِ أسماعهم التي تأبى الاستماع ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ذلكم الأمر الأشدّ شرًّا نارُ جهنّم التي وعد الله الكفّار والعصاة بأن يدخلوها، وساء مقامها نهايةً لهم، و افتتح الجواب بلفظِها تخويفًا بها، وأعاد ذكرهم بلقبِ الكفرِ تنبيها لما استحقّوا به النّارَ وليشنّعهم.

وفي خضمِّ مجادلةِ المشركين في معبوداتِهم يخلّدُ الله هذا المثل البديع ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لفظ "النّاس" عامٌّ والظّاهر أراد به المشركين بدليلِ "تدعون من دون الله"، و إيرادُ هذا النّداء في بداية السّورةِ وتجديدُه مع خواتمها ضربٌ من البراعة في ردِّ العجز على الصّدرِ ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ قد بيّن الله لكم مثلاً يوضّح عجز المعبوداتِ عن الخلقِ والإيجاد لتعتبرُوا بهِ فألقُوا لمدلوله أسماعكم، والمثل الحال الغريبة المُشْبِهة لحالٍ معلومةٍ؛ وضربُه تبيينُه؛ واستعير الضّرب من هيئةِ وضعِ الشّيء بشدّةٍ لينتبه إليه الموضوع له، وتخصيصُ هذا المثل بالأمرِ بالاستماعِ لأنّه تضمّن حديثًا فيما يستنفر الحديث في شأنه ولأنّ شأن المشركين عدمُ الاستماع ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنّ جميع ما تعبدونه تاركين به عبادةَ الله، والآية شاملةٌ للأصنام وسائرِ المعبوداتِ، وعبّر بالدّعاءِ عن العبادةِ لأنّه مخّها و أقوى مظهرٍ فيها ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ لن يقدرَ على خلقِ ذبابةٍ واحدةٍ، وعبّر بالتّأكيد مع حرفِ التّأبيدِ والتّأييس تقريرًا لعجزهم الدّائم مهما تطوّرت الوسائل، والذّباب اسم جمعٍ لذبابةٍ والجمعُ ذبّان؛ مأخوذٌ من الذّبّ وهو الاختلاف ذهابًا و إيّابًا كما هو الحال عند مباعدته، ولعلّه مثّل بالذّباب لتوسيعِ صلاحيّة المَثَل فهو معلومٌ جدًّا بتعرّضه الكثير للنّاس، ووجه تعجيزِهم به أنّ قذارته مانعةٌ لهم من التّفكيرِ فيه، فإن حاولوا ذلك أعجزهم بدقّةِ أجهزته، ثمَّ استقبلتهم كثرةُ أعدادِه؛ وفي ذلك موانع مركّبةٌ بعضُها ببعضٍ، وتقريرُ عجزهم شمل الأزمنة الماضية أيضًا بدلالة الحال ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ ولو اتّحدت قوى معبوداتهم في إرادةِ خلقه؛ وهنا مانعٌ آخر لأنّ الذّباب ليس ممّا من شأنه أن تعقد له كبرى الاجتماعات؛ على ما في الاجتماع من قيمة التّعاون المفضية إلى تحقيق ما يعجز عنه الأفراد، والأظهرُ أنّ الآية أنسب بهذا التّأويل فليس كبر الشّيء يعجزُ أكثر من دقّته، والحاصل أعجزهم قمّة العجز عن خلق ما يظهر بدايةً أنّه أهون ما يخلق، ثمّ نزل بالمثلِ إلى درجةٍ أخفض فقال: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ فهم ليسوا عاجزين عن خلق الذباب فحسب بل إن يأخذ الذّباب

شيئًا لهم ممّا يقعُ عليه لا يقدرُون على استرجاعه منه مهما حاولوا، والسّلب اختطافٌ على وجه السّرعة والاختفاء، والاستنقاذُ مبالغةٌ في الإنقاذ، وتنكيرُ "شيئًا" للتّحقير، والتّنويهُ بهذا إشارةٌ إلى ضعفهم في السّيطرةِ على هذا المخلوقِ الضّعيفِ فكيف يملكون لغيرِهم نفعًا أو ضرًّا، وقد أثبتتِ الأبحاث العلميّة أنّ السّرّ في هذا ما أودع الله في أجهزته من سرعةِ تحويلِ ما يأخذه إلى مادّةٍ أخرى، وفي هذا إيماءٌ إلى عجزهم عن إبطالِ ما أودعه الله في الذّباب كما عجزوا عن إبداعه ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ قصُر الطّالب وهو العابد عن تحقيقِ مبتغاهُ من المعبودات وضعفت المعبُودات عن تحقيقِ شيءٍ لعابديها، والعبرة من هذا أنه إذا كان حالُ معبوداتكم على هذا الضّعفِ فكيف بكم تعبدونها وتدَعون عبادةَ الله، وقيل: ضعفت معبوداتُهم أن تطلبُ ما سلب الذّباب وضعف الذّباب عن ردّ ما تطلُب.

ثمّ يستخلصُ العبرةَ من المثلِ المضروب بتعليلِ عبادة المشركين لِما لا يقدّمُ لهم شيئًا ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ لم يعرفُوا لله مكانته حقَّ المعرفةِ؛ إذ جعلُوا صفاتِ أعظم الموصوفين لأذلّ المخلوقين؛ واستكبرُوا على ما يُتلى عليهم من كلام الله على لسانِ رسُول الله، واختيارُ أسلوبِ الغيبةِ "قدروا" تعريضٌ بأنّهم ليسُوا أهلاً للمخاطبةِ لعدم سماعهم وحقارةِ مقامهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إنّ الله صاحبُ القدرةِ المطلقةِ أهلٌ للعزّةِ التّامّةِ، والمراد فلا ينبغي أن يترك القويُّ ويلتجأ إلى الضّعيف؛ ويترك العزيز فيستعان بالحقيرِ المهين، وأكّد الجملة تنزيلاً للمشركين منزلة من لا يعي مدلولها إذ لم يظهر فيهم أثرُه، واختيارُ الصّفتينِ في هذا المقام تضمّن تحذيرًا لهم من أثرِ الاستهانة ببطش من لا قوّة تضاهيه ولا عزّةَ تحاكيه.

وممّا احتجَّ به المشركون على الرّسُول ﷺ أنّ الرّسالة ينبغي أن تكون في أشر افهم كي يقبلُوا عليها فأجابهم: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ الله هو مَن يختارُ من ملائكته الكرام رسلاً إلى البشرِ يحملُون إليهم الرّسالاتِ السّماويّة ويختارُ من النّاسِ رُسلاً يتلقّون عن الملائكةِ ما حملُوهُ إليهم، وأظهر اسم الجلالة و افتتح به تنويها بمقامه الأعظم الذي يناسبه مراعاة الأصلح لعباده، والمعلوم من رسل الملائكةِ جبريل عليه السلام فقط؛ فيكونُ ذكره بالجمعِ للتّعظيم؛ أو دخل في هذا ملائكة التّأييد والتّبشير وغيرُهم، وبدأَ بالملائكةِ لأنّ الاصطفاء فيهم -وهم خلقٌ أطهارٌ- أعجب؛ فإذا وجد فكيف

يستغربُ في النّاس، وتضمّنت مناسبةُ الآية هنا تلميحًا إلى أنّ من اتّخذتموهم شركاء من الملائكة والنّاس لم يجعلهم الله إلاّ رُسلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إنّ الله يسمعُ محاججة المشركين في هذا الشّأن ويطّلعُ على أعمالِهم، والجمع بين الصّفتين تنبيهٌ إلى إحاطته تعالى التّامّة بالخفايا فإنّ من شأنُه كذلك جديرٌ باصطفاء الأَخْيَر ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ والله مطّلعٌ على أعمال المشركين في شتّى أحوالِهم، وما بينَ الأيدي كنايةٌ عن الحاضر أو ما يستقبلُ، وما خلف الإنسان كنايةٌ عن الغائب باعتبارِه مضى أو سيأتي؛ وفي القرآن: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]، ويُحتملُ عود الآيةِ إلى الرّسُلِ والملائكة بمعنى: فقد اختارهم عن علمٍ بكافّةِ أحوالهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وإلى الله وحدهُ مرجعُ أمرِ نزول الوحيِ واصطفاء الرّسل فلا يسأل عمّا يفعل؛ وإليه مرجع كلّ أمورِ الخلقِ حتّى يفصل في شأنها، وتقديم الجارّ والمجرور على متعلّقه أفاد القصر.

٤٠. الدّعوةُ العامّةُ لأهلِ الإيمان بعد إبطالِ منهجِ الشّرك

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ(٧٨)﴾.

وبعدَ مشوارٍ طويلٍ من بيانِ الأحكامِ ومحاججةِ المشركين يختمُ السّورة بما يجمعُ شتات الوصايا والعبر المستفادة مخاطبًا أهل الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يا أيّها المتّصفون بصفةِ الإيمان: أدُّوا الصّلاةَ كما فرضت عليكم، وذكر أجزاء الصّلاةِ من ركوعٍ وسجودٍ مجازًا لشرفهما والمراد الكلّ، وقيل: ذكر الهيئتين كنايةً عن الخضوع ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وأذعنُوا لمن خلقكم في كلّ ما وجّهكم إليه، وذكر عموم العبادةِ بعد خصوصها لإفادةِ الشّمول والاهتمام بشأنِ الخاصّ أي الصّلاة؛ فإنّ مظهر الخضوعِ فيها ينبغي تعميمه على سائرِ المجالاتِ الحياتيّة ﴿وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وبعد الإيمان اجتهدُوا في اكتساب العملِ الصّالحِ راجين أن تفوزوا برضوان الله تعالى، ولعلّ الأمر بالعبادة متّجهٌ إلى الفرض وفعل الخيرِ منصرفٌ إلى النّفل، والتّرجّي في "لعلكم" المتضمّن معنى التّردّد في حقّ الله غيرُ جائزٍ؛ ومحمل أمثال هذا التّعبير القرآنيّ أنّ الله يقرّبُ موعودهُ لنا بما نفهم منه أنّه محقّقٌ وفي

نفس الوقت نكادُ ألاّ نصيبه إن غفلنا عنه، والدّعوة إلى الخيرِ والإكثارِ منه تربيةٌ لنا في استثمار العمرِ نضمنُ بها تقليص فُرصِ اكتسابِ السّوء ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ واجتهدُوا في طرقِ الخيرِ بالنّفسِ والمالِ مستفرغين كلَّ جهودكم؛ وفي هذا تربيةٌ بأنّ العظام لا يأتون بالأعمالِ إلاّ على أكملِ وجوهها، و"في" للتّعليل بمعنى لأجلِ الله، والآيةُ إيماءٌ إلى الإخلاص لله الذي من لوازمه الاجتهاد والمداومة المنافيان لانتظارِ الفرص وتحيّنِ الأغراض، وشملت الآية الجهاد الحربيّ وغيرهُ.

ثمّ يعلّلُ سبب حمله لنا على نفائس التّوجيهات السّابقة بأنّه ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ هو الذي اختاركم لنصرة دينه إذ وجد منكم نيّةَ عبادته وفعل الخيرِ؛ والمراد فاعرفُوا قدر الاجتباء بالالتزام وإن تولّيتُم فسيختارُ غيركُم، أو اجتباكم من بينِ الأمم بأحسنِ دينٍ وأكرم رسُولٍ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ولم يجعل في دينكم ما يحملُكم على ما لا تقدرون عليهِ فيحصُل لكم الحرج بذلك، بل جعله يسير المأخذ يَسعَدُ باتّباعه أصحابُه، و"من" صلةٌ لتأكيدِ نفيِ عمومِ الحرج، ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ والزموا ملّةَ أبيكم إبراهيم عليه السلام فهي على هذا النّحوِ من رفعِ الحرجِ؛ ولا نعلمُ ما بقي من شرعِ إبراهيم إلاّ أصولاً عامّةً؛ ولعلّ المراد مدحُ شريعتنا بأنّها أقرب من شريعة الخليل قربًا لم تحظَ به شريعةٌ أخرى وإن لم نعلمه، وعلى هذا "ملّة" منصوبٌ على الحال؛ ونصبها على الإغراء"الزموا" أشهر، والأبوّة أبوّةٌ دينيّةٌ وليست نسبيّة فهو الأب الرّوحيّ لكلِّ من اتّبعه.

وبعد بيانِ اجتبائه لنا في الصّفات يبيّنُ الاجتباء في التّسمية العامّة ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ الله هو الذي شرّفكم بلقبِ "المسلمين" في كتبِ الأممِ السّابقةِ كما شرّفكم به في هذا القرآن، فتشرّفُوا بهذا الاسمِ وكونوا حقًّا تحت لوائه بالاستسلام لأمرِ الله ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ شرّفكم بذلك لأجل أن يكون الرّسُول محمدٌ ﷺ يوم القيامة شهيدًا لصالحكم في نصرتكم لدينِه؛ على أنّ "عليكم" بمعنى لكم، أو شهيدًا على أنّه بلّغكم، وكفاية شهادةِ الواحد على الجماعة تشريفٌ ولعلّه خَصَّ به محمّداً ﷺ فهذهِ الأمّة تشهدُ على باقي الأمم تتميمًا لشهادةِ رسلها عليها؛ كما قال: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وتكونوا شهداء على سائرِ الأقوام بأنّ الله قد أرسل إليهم رُسلاً وأنزل إليهم كتبًا، وإنّما خصَّ هذه الأمّة بالشّاهدةِ لأنّها الخاتمة؛ فهيئةُ المتأخّر تسمحُ له بالاطّلاعِ على من تقدّمَ ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فداوموا على الفرائض وحافظوا عليها؛ وذكر الصّلاةَ والزّكاة على

سبيلِ التّمثيلِ للأحكام بأشهرِها و أقدمها تشريعًا، يشيرُ بهذا إلى أنّ الرّفع من شأنكم يقتضي أن تقابلُوه بالاستقامة؛ مع ما فيها من مظهرٍ مناسبٍ لشكرِ الله على ما أولاكم به ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ وارجعُوا إلى الله في كلِّ أمورِكم الدّينيّة والدّنيويّة مستعينين به فهو ناصرُكم والقائم بجميع مصالِحكم، والاعتصام افتعالٌ من العصمِ وهو المنع، والمولى السّيّد المراعي لمصالح عبده ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ وأكْرِم به قائمًا على مصالح خلقه و أنعِمْ به ناصرًا ومؤيّدًا، والمراد أَثنُوا الثّناء العظيم على الله بسببِ هذا، وبذكرِ أهوال السّاعةِ المزعزعة للقلوب مطلع السّورة والختام بما ملؤُه طمأنتُها وتأنيسُها انجلت براعة الاختتام منوّهةً بشأن مُنزّل القرآن.

نموذج من أسئلة المسابقات السابقة

حتى يتعرف المشارك على طبيعة وطريقة أسئلة المسابقة، فيما يلي نموذج لبعض أسئلة المسابقات السابقة:

١- قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ تضمنت الآيتان علاجا لوسوسة الشيطان هو:

أ	ذكر الله والاعتصام به وطلب الحماية منه لأنه العليم به وبنزغه.
ب	عدم التمادي مع الوسواس حتى لا يتمكن في القلب.
ج	جميع ما ذكر صحيح.

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
ما الفرق بين الاستماع والإنصات؟

أ	الاستماع محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت، والإنصات رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره.
ب	الاستماع رد كل شاغل عن السماع وعدم الاشتغال بغيره ، والإنصات محاولة السماع للقراءة بتفريغ قوة السمع للصوت
ج	لا يوجد فرق بينهما، وقد جاء طلب الإنصات تأكيدا لطلب الاستماع

٣- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (الْأَنْفَالُ) هي:

أ	الغنائم من الحرب.
ب	ما يتقرب به المسلم إلى الله من النوافل.
ج	قوافل التجارة.

٤- قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ كره فريق من المؤمنين الخروج للقتال ببدر بسبب:

أ	عدم استعدادهم للقتال، حيث كانت نيتهم الأولى هي التعرض لعير قريش وليس القتال.
ب	للخوف من العدو حيث كان عدد المسلمين قليلا.
ج	أ و ب صحيحتان .

٥- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ (الطَّائِفَتَيْنِ) هما:

أ	المسلمين والمشركين.
ب	العير المقبلة من الشام وما تحمله من أموال وبضائع، وقتال النفير المقبل من مكة والنصرة عليهم.
ج	المسلمين واليهود.

٦- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ معنى الاستدراج الوارد في كلمة (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ):

أ	سيرسل الله لهم الآيات والأوبئة والمصائب مما يجعلهم يقنطون من رحمة الله تعالى، فيأخذهم بغتة من حيث لا يشعرون.
ب	سيبسط الله لهم من الرخاء والنعماء ما يجعلهم ينسونه ويستبعدون عقابه، فيأتيهم بأسه من حيث لم يسبق لهم به علم.
ج	سيرسل الله تعالى إليهم السراء والضراء مما يجعلهم ينسونه ويقنطون من رحمته، فيأخذهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون.

٧- قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ورد في تفسير (كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا):

أ	كأنك تتعمد إخفاءها على قومك رغم علمك بها من خلال الوحي.
ب	كأنك صاحب معرفة بها وبحث في شأنها ومهتم بها.
ج	كأنك على اطلاع بإمارات قيام الساعة ولكن تخفيها على قومك للاستعداد للامتحان الدنيوي.

٨- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ مشيئة الله هنا تعني:

أ	إيمان الإنسان أو كفره بيد الله وحده، ولا اختيار للإنسان فيه مطلقا.
ب	يمكن للإنسان أن يتحول إلى غير دينه بنفسه واختياره المطلق دون أن تكون للمشيئة الإلهية أي تدخل في هذا الجانب.
ج	التأدب مع الله سبحانه وتعالى الذي جعل كل شيء بيديه، حتى إيمانهم الذي تمكنوا فيه، فلو شاء الله خذلانهم بالكفر ما منعه مانع.

٩- قالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ "لخاسرون" كانوا يقصدون بها:

أ	التحذير من اتباع شعيب عليه السلام بوقوع الهلاك والخسارة والمتمثلة في أضرار تحصل لهم في الدنيا من جراء غضب آلهتهم عليهم كما يظنون؛ لأن الظاهر أنهم لا يعتقدون البعث.
ب	التحذير من خسارة ما يجنونه من الأموال نتيجة تطفيف المكيال والميزان وغش الناس.
ج	أ و ب صحيحتان.

١٠- قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ في هذه الآية الكريمة يحذر الله المؤمنين من بلاء يصيب:

أ	المسيء بظلمه ومخالفته لأمر الله تعالى.
ب	غير المسيء لسكوته عن المخالفين وعدم إنكاره المسيء مع القدرة على ذلك.
ج	"أ" و "ب" .

١١- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى ..... ، وكان ذلك في .....

أ	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى اليهود، وكان ذلك في المدينة المنورة.
ب	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في مكة المكرمة.
ج	(الَّذِينَ كَفَرُوا) تعود إلى كفار قريش، وكان ذلك في المدينة المنورة.

١٢- قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ المكر هو ..... ، وتفسير مكر الله سبحانه وتعالى هو .....

أ	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو إلهام نبيه صلى الله عليه وسلم بالدفاع عن نفسه بمخادعة الكفار ورد مكرهم عليهم.
ب	المكر هو محاولة إيقاع الضرر بالقوة، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو رد مكر الكافرين عليهم بإرسال ملائكته لنصرة النبي صلى الله عليه وسلم.
ج	المكر هو محاولة إيقاع الضرر خفية، ومكر الله سبحانه وتعالى هنا هو حفظ الله لرسوله وإفشال مكر الكافرين حيث أنجاه الله منهم وحفظه وردد مكرهم عليهم.